كتاب الهلال



سلسلة
ثقافية
شهرية

أضواء على الأدب الصهيونى المعاصر

إبراهيم البحراوى

8

إبراهيم البحراوى

أضواء على الأدب الصهيونى المعاصر

مقدمة

ليس من هو اشد منا حاجة الى دراسة الانسان الاسرائيلى ، والتعرف على مكوناته الشخصية وزوايا استثارته واستجابته .

ان هذه المهمة التى سبق اليها العدو الاسرائيلى عندما توفر باحثوه فى شتى ميادين الدراسات الانسانية على جمع وتحليل المعلومات والبيانات عن الشخصية العربية فى مختلف فئاتها وقطاعاتها عبر كل ما يمكن من مصادر فى مقدمتها المعايشة الحية للمجتمع العربى قبل قيام دولة اسرائيل ، والانصراف الى استقاء المعلومات النفسية والاجتماعية بعد قيام الدولة ، من الدراسات المختلفة ومن الانتاج الادبى العربى فى شتى فنونه وعلى اختلاف مستويات كتابه .. هذه المهمة آن لها أن تحظى على الجانب العربى باهتمام مماثل ، بل ومضاعف ، حيث أن ميزة المعايشة الدارسة الفاحصة للانسان الاسرائيلى فى مجتمعه مفقودة بالنسبة لنا على المستوى العام .

ان الاهتمام العربى بالدراسة الجادة لمناحى الحياة الاسرائيلية لم يبدأ الا من سنوات قليلة ، ولذا فان نظرة فاحصة على حصيلة الدراسات العربية التى تمت حتى الآن فى هذا الصدد ، تجعلنا نخرج بنتيجة

واضحة هي ان جهد الباحث العربي كله منصب على دراسة الظواهر الكلية في المجتمع الاسرائيلي ، فهناك دراسات حول البنية السياسية العامة لهذا المجتمع واحزابه ومؤسساته السياسية ، وهناك دراسات تتناول البنية الاقتصادية العامة له.. تتفرع الى تناول مؤسساته الاقتصادية المختلفة كل على حدة ، وهناك بحوث في ميدان الدراسات السكانية ، نلتقي فيها بتناول للهيكل السكاني العام وحركة الهجرة والنزوح ، وهناك دراسات تعرض للنواحي التاريخية في منشأ الدولة الاسرائيلية والاتجاهات المذهبية والفكرية التي تعتمل في داخلها ، وهناك من الدراسات ما يمس جوهر السياسة الخارجية في اسرائيل وطرق صنعها ووسائل الاعلام عنها وما الى ذلك من النواحي العامة في حياة المجتمع الاسرائيلي .

***

وهكذا نجد ان اهتمامنا ما زال محصورا في دراسة الظواهر الكلية في هذا المجتمع في حين انه لم تجر حتى الآن محاولة واحدة من جانب متخصص عربي في احد جوانب الشئون الاسرائيلية في اتجاه الكشف عن الظواهر الدفينة غير المرئية عبر الدراسات الكلية التي تمت حتى الآن .

ان القصد هنا متجه الى الديناميكية الداخلية لنفس الفرد الاسرائيلي في درجاته الاجتماعية المختلفة اقبالا واعراضا ، تحمسا وفتورا ، تراخيا وتشددا ، تجبرا وانكسارا ، عزلة وانفتاحا (١)

---

(١) بعد انتهاء الكاتب من تأليف هذا الكتاب .. صدرت دراسة قيمة عن الشخصية الاسرائيلية للاستاذ قدري حفني عن مركز الدراسات الفلسطينية بالاهرام ، ومع ذلك فهي لاتغني عن دعوة الكاتب في المقدمة .

هـذه الدينـاميكية التى هى فى حقيقتهـا حصـيلة للعـلاقة الجدليـة بين الظواهـر الـكلية فى المجتمـع الاسرائيلى وكل المجتمعات ، وبين ذاتية الفرد فى مختلف قطاعاته .

***

ان الاقتصـار على دراسـة الـكليات يقعـد بنـا عند حد فهم ما هو ظاهر من الحركة الـكلية فى مجتمع العـدو ، لانه لا يتيح لنا بحال معرفة اكيدة بتجاوبات الفرد الاسرائيلى فى فئاته الاجتماعية والجيلية المختلفة سـلبا وايجابا مع الحركة الـكلية ، وبالتالى يقعد بنا قصـور الفهم هـذا عن الوقوف على مداخل النفـاذ الى النفس الاسرائيلية التى لايمكن الوقوف عليهـا الا بمعـرفة تجاوباتها مع الحركات الـكلية فى مجتمعهـا بحيث يمكننـا من خـلال هـذه المعرفة تحديد زوايا الاستجابة والاستثارة سلبا وايجابا فى هـذه النفس على تدرج مستوياتها من خلال اجراء القياس على تجاوبها مع حركة مجتمعها .

وبعبـارة أوضح ان رغبتنـا فى تحقيق تأثير فعـال لدى الانسـان الاسرائيـلى فى ميـدان التنوير بعـدالة موقفنا والحرب النفسية من ناحية ، والتنبـؤ بحركته قبـل أن تصـدر الى حيز الفعـل من ناحية أخرى ، أمر يستحيل تحقيقه دون اخضاع هذا الانسان للفحص والتحليل النفسى الاجتماعى على أساس نوع استجابته لمـا يدور فى مجتمعه من حركة عامة ، وبالتالى يسهل علينا تحديد المنافذ التى يمكننا سلوكها للتأثير فيه .

ولست بهذه المقدمة ادعى القدرة على التصدى لهذه المهمة فهى واقعة فى اختصـاص البـاحثين النفسـيين والاجتمـاعيين وهى مهمة تقتضى سـنوات من البحث

والمتابعة ولـكن ما أردت اثارته بهذه المقـدمة انما هو لفت النظر الى اهميــة هـذا الجانب المغفل فى دراستنا للعـدو ، بالاضـافة الى شق مدخل الى طريق هـذا النوع من الدراسة بالمعلومات التى اقدمها عن الانسـان الاسرائيلى وتجاوباته مع حركة مجتمعه العـامة منـذ حرب ١٩٦٧ من خلال ما توفر لى من انتاج أدبى عبرى منشور فى اسرائيل بين سنوات ١٩٦٧/١٩٧٠

***

فى هذا الـكتاب عمدت الى تقديم نماذج ممثلة بالفعل لـكل مضامين الادب العبرى فى هـذه السنوات تسلسما منى وأدراكا بأن أحد الطرق الهامة المفتـوحة أمامنـا لاستقاء معلومات نفسية عن الانسان الاسرائيلى انما هو طريق الادب .. طريق الاديب الاسرائيـلى الذى يوفر لنـا امكانية ما لتحقيق المهمة المشار اليها بما يقـدمه من تجاوبات أدبيــة سـلبا وايجابا مع الواقع النفسى الدقيق الذى خلقته الحرب فى اسرائيل ، وهو الواقع الذى لا يقدر على رصده والاشـارة القاطعة الى حقيقة أبعاده سوى الاديب الذى يعـايش ذلك المجتمع كجزء منه ينفعل بقضايا واقعـة ، ويتمثلها من خلال الرؤية الادبية التلقائية أو الموجهة والتى تتميز فى عمومها عن رؤية الانســان العادى بعمق النفـاذ الى الاغـوار ، واستبصار أدق الاعتلاجات التى قد تغيب عن المراقب العادى لمجريات الامور .

***

من اللازم أن نشـير ابتـداء الى حقيقة لا ينبغى أن تفوتنا وهى أن قطـاعا كبـيرا من الادب فى اسرائيـل خاضع للتوجيه فالادب هناك يلعب دوره كأحد وسائل الاعلام الراقيـة الخفية من ناحية ، ويقوم بدور المعالج

للترديات النفسية التى يلاحظها الاديب الملتزم فى مجتمعه من ناحية أخرى .

وهذه الحقيقة تكفل لباحثينا ميزة كبيرة فى محاولة دراسة الانسان الاسرائيلى من خلال الانتاج الادبى .

فطالما ان الاديب الاسرائيلى يلجأ الى علاج الترديات السيكلوجية التى يلحظها لدى جماهيره أو قطاعات معينة فيها ، فانه يحرص على سلوك الطريق الذى يوفر له مدخلا صحيحاً الى زاوية الاستجابة فى نفوس قرائه .. الامر الذى يدركه من خلال المعايشة .. وبالتالى فان اجراء القياسات النفسية من جانب باحثينا النفسيين على مضمون العلاج الذى يقدمه الاديب وعلى العلة ذاتها مع تحديد طريقة اقترابه من نفوس قرائه ، تيسر لنا مع تعدد هذه القياسات على أكبر عدد من الادباء الطريق الى الاحاطة العامة بالمداخل المختلفة لهذه النفس .

***

وبالطبع فان هذه الدعوة الى الانفتاح على دراسة الشخصية الاسرائيلية لا تقصر نفسها على الانتاج الادبى كمصدر وحيد لاستقاء المعلومات فهناك من المصادر الاخرى الثقافية من تمثيليات اذاعية ، وأفلام سينمائية وبرامج اذاعة وتليفزيون جماهيرية حوارية ودراسات اجتماعية ونفسية ومصادر التراث الشعبى من نكات وأمثال وحكم مأثورة سائرة وشائعة ومصادر علمية تقدم الخلفيات التاريخية لتطور الشخصية اليهودية فى المجتمعات المختلفة قبل نزوحها الى الدولة الاسرائيلية فى محاولة الذوبان فى شخصية واحدة .. ما يمكن أن يوفر مادة صالحة ومتكاملة تؤدى

بنـا فى النهـاية الى الخروج بحقائق علميـة ثابتة عن الشخصية الاسرائيلية الراهنـة ومكوناتها فى قطاعاتها المختلفة .

***

والمهم فى هـذا كله هو أن يتوافر عدد من الباحثين العرب فى ميادين السياسـة والاقتصـاد الاسرائيليين والادب العبرى وعلم النفس وعلم الاجتمـاع والتـاريخ اليهودى الاسرائيلى فى شكل فريق عمـل واحد ذى خطه واضحة ذات مراحل متكاملة تضع نصب عينيها جوانب محددة تحديدا علميا دقيقا بهدف استقصائها للـكشف عنهـا واجراء عمليـات الربط والقيـاس المطلوبة حتى يمكن الوصول مع تعدد مراحل الخطـة الى النتـائج النهائية الممكنة .

وهو أمر لا يمكن أن يتحقق الا بامكانيات تمويل وتوفير المصادر والمراجع الـكافية يتيحها مركز علمى قادر على التمويل والتنسيق .

القاهرة ــ ابريل ١٩٧٢

ابراهيم البحراوى

نظـــرة متبـادلـــة

- نظرة اسرائيلية على الادب العربى
- نظرة عربية على الادب الاسرائيلى
- اســاليب التعبير الادبى الصهيونى

« من كان حظه أعظم ربحا من الناحية الادبية
نتيجة للحرب .. العرب أم نحن من نجد
صعوبة فى هضم انتصارنا والاتساق معه ؟ »

نظرة اسرائيلية على الأدب العربى

ان ما أوحى الى فى الواقع بكتابة هذا الفصل هو احساسى بأن المقارنات التى دأب الانسان العربى على عقدها منذ هزيمة حزيران بين أوجه الحياة العربية والحياة الاسرائيلية بدافع الرغبة فى التعرف على طبيعة الثقل فى كفتى الصراع .. هذه المقارنات التى تنسحب لدى الانسان العربى على الميادين السياسية والاقتصادية والعسكرية ينبغى أن تمتد أيضا الى مضمار الانتاج الادبى فى كفتى الميزان حيث ان هذا الانتاج هو جماع الاوضاع العامة كلها ومرآتها العاكسة .

ولقد كان فى تخطيطى الاولى لهذا الفصل ميل نحو الحديث التحليلى من جانبى لظروف الانتاج الادبى العبرى فى اسرائيل وما تحمله من مقاربات ومفارقات عن ظروف الانتاج العربى عامة . ولكن الصدفة ساقت لى مقالا نقديا للناقد الاسرائيلى آهود بن عزر نشر فى الملحق الادبى لصحيفة عل همشمار بتاريخ ١٩٧٠/٧/٣ يعلق فيه على عدد خاص أصدرته المجلة الادبية

الاسرائيلية ربع السنوية «قيشت ـ أو القوس بالعربية» عن ظروف الانتاج الادبى العربى بعد عام ١٩٦٧ .

ولما كانت تعليقات الناقد أو انطباعاته عن عدد المجلة الربيعى هذا لعام ١٩٧٠ والصادر فى ١٩٧ صفحة محررة على أيدى مجموعة من دارسى الادب العربى الاسرائيليين ومشتملة على دراسات نقدية الى جانب نصوص كاملة من الشعر والقصص القصيرة لكتاب عرب مختلفين مثل نجيب محفوظ وسليمان فياض ويوسف ادريس وأنسى الحاج وعبد الوهاب البيانى ومعين بسيسو ونزار القبانى وفدوى طوقان وغيرهم .. لما كانت تعليقات الناقد عليها تتضمن مقارنات بين الظواهر التى لمسها عن الادب العربى والحياة العربية بعد الحرب من خلال عدد المجلة ونفس الظواهر فى الادب الاسرائيلى والحياة الاسرائيلية بعد الحرب أيضا .. فقد وجدت ان هذا المقال النقدى يمثل وثيقة قادرة على الانباء بنفسها وعلى لسان كاتبها الاسرائيلى عن حقائق الحياة الاسرائيلية وانعكاساتها الادبية .

ولذا فانى أسوق مايورده هو من مقاربات ومفارقات كوثيقة تتصدر هذا الفصل وتقدم أهم السمات العامة المميزة للحياة الادبية والفكرية فى اسرائيل بالنسبة لما هو قائم فى العالم العربى . وبالطبع فان ما يسوقه الناقد عن سمات الادب الاسرائيلى يمكن قبوله على انه شهادة لهذا الادب أو عليه على أساس معايشة الناقد الكاملة له وانغماسه فيه بينما يمكن قبول ما يورده بشأن الادب العربى على انه وجهة نظر مبنية على قراءة مائة وسبع وتسعين صفحة عن الادب العربى

وللمثقفين العرب بالطبع كل الحرية فى تقييم وجهة النظر هذه وتصويبها ان شطت أو بالغت أو خالفت ما يعرفون عن حقائق واقعهم المعاش بالنسبة لهم .

يقسم الناقد مقاله الذى سنورد فيما يلى ترجمة كاملة له الى فقرات مرقمة تحمل كل منها موضوعا معينا وممهدا لها بالتمهيد التالى :

« من طبع القارىء الاسرائيلى انه يسعى وراء المقارنات فهناك رغبة كامنة فى التعرف على ما أحدثته الحرب لدى العرب تجاهنا .. بل الكشف عمن كان حظه أعظم ربحا من الناحية الادبية نتيجة للحرب . اهم المترديون فى نتائج هزيمتهم أم نحن من نجد صعوبة فى هضم انتصارنا والاتساق معه . ان عدد مجلة « قشت » يعطى بعض الاجابات ولكن على أن أؤكد ان هذه الاجابات تمثل انطباعات موضوعية تولدت لدى بعد قراءة العدد وليست تلخيصا لمواقف ورد التعبير عنها داخل العدد .

— ١ —

ان أزمة المثقفين وتعويق التفتح الادبى الحر الذى يوفر للأدب خاصة الاتصال بكل نواحى الحياة .. أزمة قائمة فى مصر مثلما هى قائمة عندنا تماما . ذلك اننا نلاحظ ظاهرة الهروب الى التعبير الرمزى « مثل قصص نجيب محفوظ الاخيرة » وهو هرب ناتج من العجز عن التعبير عن آراء ناقدة أو الاطلال على وهدة الكابوس الكامن فى حالة الحرب دون المخاطرة بالانزلاق الى موقف يتعرض فيه الاديب للاتهام بأنه من أعداء النظام أو انه انهزامى .

ويمكننا أن نقدر أن مسرحيـة كمسرحية « ملـكة الحمام » (١) يمكن أن تعامل فى مصر بنفس الطريقـة التى عوملت بها عند عرضها فى اسرائيـل . بل انه فى مصر قد سمح بعرض مسرحية نقدية سياسية ليوسف ادريس تحت اسم « المخططين »

— ب —

وكما هو الحال هنا فانه توجد هناك خصوبة فى أدب الحرب « المطابق للاوضاع » السائر فى أخدود يتعمق مثل قصة سليمان فياض المشـحونة باحساس الثأر « أحزان يونيو » . وهى قصة تذكرنا بدرجة غير قليلة بالنغمة الانفعالية المسموعة فى صحافتنا المسائية . قصة «قومية» للغاية مطبوعة بطابع أحلام اليقظة للغاية ومزيفة للغاية . فهى لاتعدم عنصر حب الوطن وما الى ذلك (٢) .

وفى مقابل هـذا فانه يوجد هناك كما هو هنا ايضـا تحفظات مفهومة من قبل بعض الادباء الجادين (٣) ضد

---

(١) مسرحية عبرية ظهرت بعد حرب ١٩٦٧ وهى تتعرض بالنقدالمرير لاتجاهات السلطة الاسرائيلية وتكشف عن مثالب الحكومة القائمة فى اسرائيل . وتحكى المسرحية قصة فتاة اسرائيلية كانت تعيش قصة حب سعيدة مع حبيبها حتى أثارت الحكومة الاسرائيلية حرب يونيو فالتحق الحبيب بالقتال ولم يعد اليها ثانية اذمات .

ومن هنا تبدا الفتاة فى لعن الحكومة الاسرائيلية وأطماعها وتطالبها بالتخلى عن هذه الاطماع وترك الناس يعيشون فى سلام فى اسرائيل . وقـد تعرضت المسرحية للمطاردة والمصادرة والهجوم من جانب السلطات الاسرائيلية ووصفها موشى ديان بأنها مسرحية قذرة وذلك لما تبثه فى الانسان الاسرائيلى من مشاعر مخالفة لما يعمد جهاز صناعة الانسان فى اسرائيل الى صياغة أفراد المجتمع عليـه من عدوانية وتحجر انسانى رافض لقيم السلام والتفاهم مع العرب .

(٢) و (٣) يلاحظ فى هاتين النقطتين ان الناقد الاسرائيـلى يغفل فى مقارنته التى يعقدها هنا عن مفارقة اساسية تميز الاديب العربى عن

السير فى هـذا الاخدود والعمـل على خدمة أهـداف السلطة .

ويلعب هـذا التحفظ دوره فى تقييم « أدب الحرب» الذى يبدو أنه يهدد بغزو السوق تقييما نقديا متوازنا .

ويقتبس شمعون بلس فى نهاية مقاله حديث النـاقد المصرى حسن حنفى وقد نشر فى الآداب البيروتيـة فى نوفمبر سنة ١٩٦٩ وهو الحديث الذى يجدر ان نورده هنا كاملا كى يستفيـد القـارىء العبرى وكى يستفيد خاصـة بعض الصحفيين المعينين والادباء المجتهدين فى الانتاج اكثر مما ينبغى .

عدد كبير من الادباء فى اسرائيـل بالتعبير عن المشاعر القومية فى اطار فنى .

ذلك ان الناقد يصدر حكمه على الاديب العربى المعبر عن المشاعر القومية بالزيف وخدمة اهداف السلطة .. قياسا على مايعرفه هو وما اعرفه انا عن الادب الاسرائيلى المعبر عن القيم القومية من أنه يصدر اصطناعا من الكاتب باستلهام اهداف السلطة الاسرائيلية وتعبيرا مواكبا ومروجا لاطماعها فى الاراضى العربية لشحن الانسان الاسرائيلى بالحماس لهذه الاطماع فى قالب أدبى .وهو موقف يمثل امتدادا لاساليب الدعاية الصهيونية التى كانت حريصـة على اصطناع اطار قوميـة لمشروع الاستيطان فى فلسطين .

هذا بينما يختلف الموقف جذريا عند الاديب العربى . ولو تعمـق الناقد الاسرائيلى تفكيرا فى اوضاع العالم العربى لاكتشف أن الموقف معكوس تماما . ذلك أن الايحاء القومى لا يأتى هنا من السلطة الى الادباء ثم الى الجماهير كما هو الحال فى اسرائيل .. بل ان السلطة الحريصة على بقائها فى العالم العربى هى التى تساير ما تفرضـه الجماهير عليها وعلى التعبير الادبى من تمسك بالقيم القومية والدفاع عنها ضد الغزو الصهيونى .

ولعل أبلغ دليل على هذا مايمكن أن يلاحظه هذا الناقد الاسرائيلى ـ لو اهتم بالملاحظة الموضوعية ـ من أن أى حكومة فى البلاد العربية من أقصى الشرق الى أقصى الغرب يبدو من جانبها أى تراخ فى موقفها تجاه هذا الغزو لا تلبث أن تتعرض للثورة والسخط الجماهيرى

وهذه فى الواقع أحدى المفارقات الجوهرية التى تفرق بين جوهـر الحقيقة وجوهر الزيف فى كفتى ميزان الصراع . ويوما ما سيظهر اثرها فى وضع حد جذرى له .

يقول حسن حنفى :

« تنقسم القصص التى ظهرت بعد الهزيمة الى نوعين :

نوع مكرس للتحميس وهو قريب فى اسلوبه من قصص الاطفال . ونوع يحاول أن يقدم حقائق فيما يشبه تقارير المراسل العسكرى . ويكتب الاديب عن كل الاحداث دون أن يجربها بنفسه أو يتصل بها عن قرب .

ويخطىء أولئك الذين يعتقدون أن تأثير الهزيمة علينا يمكن أن يتبدى فى تغيير موضوعات القصص من قصص حب ودموع الى قصص جنود ومعارك وفى تغيير الابطال من عاشق مخلص ، ومحب خائن الى فدائى محارب وعدو متوحش كما يحدث لمطربينا الذين يبدلون أغانيهم العاطفية الى اغان حماسية بمناسبة الاحداث الوطنية.

ان الكاتب الذى يكتب على هذا النحو هو كاتب للمناسبات فهو يكتب بما توحيه روح الساعة وتكون ردود أفعاله طبقا لمتطلبات الاحداث .. انه كاتب سطحى فى انفعالاته غير أصيل فى مشاعره يعرج على كل ما يجد فى طريقه مثله مثل خطيب المناسبات » .

ان هذه الكلمات فى الواقع كأنها أشواك واخزة تبدو فى وضوح كامل .

وما على القارىء الاسرائيلى الا ان يستبدل كلمة « الهزيمة » فيها بكلمة « النصر» لتنطبق على واقعه.

— ج —

وبين الفئة الجادة المثقفة يسود احساس باليأس والاحباط ، وذلك لان الحرب المستمرة تأتى على

حســاب صراعات داخليــة هامة تطرح جانبـا . وعلى راس هــذه الصراعات مســألة التحــرر من القيــود الدينية . وحتى فى هــذا الموضوع نجد التقابل مذهلا. ذلك ان نضـــال الديمقراطيــه العربيــة الحقيقى موجه ضــد غيوم الاســلام . فى حين يطرح هــذا النضــال جانبــا نتيجة لطنــين الحرب ضــد اسرائيل ، وهى الحرب المحمولة على امواج الوحدة العربيه القوميه التى ليست سوى استمرار للتدين العربى المتعصب .

هــذا بينما نجد عندنا انه ينبغى علينا التســليم مع سيطرة آخذة فى التزايد للاتجاهات القوميــة الدينيــة والاكراه الدينى تحت شــعار « الموقف » عــلى عكس الرؤية الصهيونية الدنيوية فى دولة ديمقراطية على نمط أوروبى غربى (١) .

---

(١) يلاحظ فى هذه النقطة أن الناقد الاسرائيلي يقع فى خطأ أساسى اخر فيما يتعلق باستخلاص السمات الفكرية المميزة للعالم العربى ذات الاثر على الصراع العربى الاسرائيلي .

ويأتى هذا الخطأ كذلك نتيجة لعملية القياس الصورية التى يجريها الناقد بين الظواهر الثابتة فى المجتمع الاسرائيلي وبين ما يتصور أنه نظير له فى العالم العربى . ذلك أن مايذهب اليه من آن الحرب ضــد اسرائيل محمولة على أمواج التدين الاسلامى المتعصب .. لا يمثــل سوى قياس على ماهو معروف للعالم كله من ان أحد العنــاصر الاساسية التى يحمل عليها جوهر الاحساس القومى الاسرائيلى هــو عنصر العقيدة اليهودية وما تضمه من ذكريات دينية . وهذا مايحول فى الواقع بين أقطاب السلطان فى اسرائيل ــ ممن يدعون العلمانية والتجرد عن النزعات الدينية المتخلفة وبين اتخاذ مواقف عملية حاسمة ضد سيطرة الافكار والمعتقدات الدينية حتى لايفقدوا أحد الركــائز الاساسية التى تقوم عليها العقيدة الصهيونية والتى تلعب دورا فى جذب بعض جماهير اليهود المتدينة الى الدولة الاسرائيلية . هذا بينما يختلف الموقف الى حد كبير على الجانب العربى .. فاحساس العداء ضد الغزو الصهيونى لدى عامة الجماهير العربية لايحمل على عقــائد دينية اسلامية كانت أم مسيحية بل هو محمل على احساس الجماهير

نستطيع أن نعلم من قراءتنا النماذج الادبية العربية الواردة فى عـدد « قيشـت » أن حب الوطن لـدى الفلسطينيين لا يقل عن حبنـا لارض اسرائيـل . ان احاديثهم عن المنفى ورموزهم المستقاة من العهد القديم والاحساس بالغربة لديهم والحماس القومى والرغبة فى الخروج من موقف السلبية التاريخية الى موقف النشاط والفاعلية .. كل هـذا يشـبه بدرجـة مثيرة للعجب العناصر المغذية للأدب والشعر الصهيونيين والارتبـاط التاريخى بفلسطين . ان نفس الاحساس بالنفى موجود عند الشعراء العرب الاسرائيليين وعند اخوانهم فى غزة أو فى لبنان .. لـكنه قد يمكن الزعم كما يفعل ساسون سوميخ فى مقاله عن فدوى طوقان بأن العنصر القومى يخرب الشعر الذاتى المتكامل وانه يبـدو مفروضا على الشـعراء العرب غير الاسرائيليـين نتيجة لاحسـاس التنافس مع شعراء مثل محمود درويش وسميح القاسم

وحتى لو افترضنا ان الامر على هـذا النحو .. فهل أدبنـا وشعرنا الصهيونى والاسرائيلى برىء من هـذا الخلل ؟ !

بالخطر تجاه غزو استعمارى يهدد باقتلاعها من اراضيها تدريجيـا ليحيلها فى النهاية الى جماعات من اللاجئين ، وهذا هو صلب الحقيقة على جانبنا العربى .

« قصائد أبياتها من الدموع .. مسرحيات حوارها
نحيب وموسيقاها ألحان جنازات .. روايات
شخصياتها وأحداثها مكللة بالســـــواد .. »

نظرة عربية على الأدب الاسرائيلى

يمكننا من خلال الفقرات الاربـــع الســـــابقة التى يسوقها النـــاقد الاسرائيلى أن نخلص الى أبرز سمات الحياة الفكرية والادبية فى اسرائيل .. وبعدها نستطيع التقاط خيط الحديث لنقدم صــورة تحليلية عامة عن أوضاع الحياة الادبية الاسرائيلية .

يقرر النـــاقد الاسرائيـــلى فى فقرات مقـــاله وجـــود السمات التالية فى الحياة الاسرائيلية :

١ ــ هناك تدخل فى حرية التعبير الادبى الاسرائيلى اذا جنح الى مخالفة جوهر أهداف السلطة الاسرائيلية .. هـــذا على عكس ما هو شـــائع عن حرية التعبـــير المطلقة في اسرائيل • وهو أمر يمثل الجـــانب العنيف من عملية شاملة تســـتهدف تجنيد الادباء الاسرائيليين ــ بالاغراءات والضغوط ــ من أجل الدعـــوة الى مفاهيم السياسة الاسرائيلية ومرتكزات الفكر الصهيونى العامة •• مما سيرد اثباته فيما بعد •

٢ ــ هناك أدب فى اسرائيل يواكب أهداف السلطة

ويدق لها الطبول وهو اداة فى يدها لتحريك الجماهير اليهودية كما سنكتشف بعد ذلك • وهو أدب يحمل سمات (الصبغة والافتعال)

٣ ـ هناك صراع قائم فى اسرائيل بين تيارات الفكر العلمانى الصهيونى والفكر الدينى الصهيونى أيضا .. ولا فارق بالنسبة لنا فى غلبة أحدهما فكلاهما صهيونى مجند بوعى أو دون وعى لخدمة أهداف استعمارية على أرضنا .

٤ ـ هناك فىاسرائيل دعوة مفتعلة لما يسمى بالقومية اليهودية وارتباطها بالارض العربية المحتلة قبل ١٩٦٧ وبعدها وهى دعوة تنعكس فى الانتاج الادبى كذلك

بعد هذه السمات المرشدة لنا فى فهمنا لواقع الحياة الاسرائيلية نتجه الى بسط الحديث عن أبعاد هذه السمات والاثر الذى تخلفه فى الحياة الاجتماعية والادبية فى اسرائيل .

الادب فى اسرائيل بعد ١٩٦٧

ان قطاعا كبيرا من الانتاج الادبى فى اسرائيل بعد ١٩٦٧ .. تنطبق عليه صفة أدب الدعوة أو ما يسمى لدى النقاد الاسرائيليين الادب المجند والادب الوليد الفورى للحظة والحدث .

وعلى الرغم من ان هذه الصفة تميز الأدب الصهيونى فى مجموعه .. عبريا كان أم غير عبرى منذ نشأته.. ممهدا للحركة الصهيونية السياسية ومصاحبا لها .. فان الادب الاسرائيلى قد أصبح اليوم أشد لصوقا بهذه الصفة بفعل الظروف والاحتياجات المادية والنفسية التى نجمت عن الحرب وما تلاها من استمرار

القتال .. حتى بدأ يعانى اسهالا كتابيا بكل ما تنطوى عليه الكلمة من فجاجة أدبية وضعف فى أسلوب الكتاب .. وهى قضية تثور حولها مناقشات واسعة على أعمدة الملاحق الادبية بالصحف الاسرائيلية بين النقاد والادباء وأحيانا ما يشرك فيها القراء ايضا .

والادب الاسرائيلى بهذه الصفة الغالبة .. ادب ملتزم بدعوى معينة تمثل لب العقيدة الصهيونية .. وهى دعوى الشعب اليهودى الواحد المتميز الذى ينبغى له أن يتجمع فيما يسمى بأرضه التاريخية . وهذه هى القضية المحورية التى قام عليها ادب الاحياء القومى فى الفترة ما بين ١٨٨٠ ـ ١٩٤٨ والتى يقوم عليها اليوم الادب الاسرائيلى الملتزم فى حدود اتساعها وتشعبها التى تترتب على سير الاحداث وتطورها .

بعد عام ١٩٦٧ أصبح الحلم الازهى لكل القوى الملتزمة بالفكر الصهيونى فى اسرائيل هو جلب ما يسمى بيهود الشتات من مواطنهم فى انحاء العالم من أجل تثبيت الانتصار الاسرائيلى وتوفير القوى البشرية اللازمة للاحتفاظ بالاراضى العربية التى تم الاستيلاء عليها والتى اعتبرت لدى القوى السياسية المجاهرة بالاهداف الصهيونية الحقيقية «أحزاب اليمين والمتدينين وحركة اسرائيل الكاملة » جزءا من ارض اسرائيل التاريخية « اسرائيل الفرات الى النيل » حتى أصبحت تسمى فى تعبيرهم الدارج « الاراضى المحررة » وحتى رفعوا شعارا دعائيا لهم فى انتخابات الكنيست الاخيرة جملة « حتى ولا شبر واحد » تدليلا على تمسكهم بهذه الارض وعدم استعدادهم للتخلى عنها ، ومن الواضح ان هذا الموقف المعلن لا يختلف فى شىء عن

الاهـداف الاساسيـة المعلنـة قديما من جانب الحركة الصهيونية فى اقامة وطـن قومى لليهـود الا من حيث اتجاهه الى ضم مزيد من الارض العربية الى رقعة هذا الوطن وبسط سيطرته عليها .

ومثلما واكب أدب الاحيـاء القومى هـدف تجميـع اليهود وانشاء وطن قومى فى فلسطين حتى عام ١٩٤٨ فان الادب الاسرائيلى يمارس اليوم دورا أسـاسيا ــ كعنصر من العناصر الراقية فى الاعلام والدعوة ــ فى مهمة قرع الطبـول لنداء تجميع يهود العـالم واسـتجلابهم ليعمروا الاراضى المحررة .

يقول حاييم هزاز أحد أعلام الادب فى اسرائيل والذى منح أخيرا لقب مواطن شرف مدينـة القـدس تقـديرا لمكانته الادبيـة .. وانتخب فوق ذلك رئيسا لاتحاد الادباء العبريين : « أن عبقرية الشعب اليهودى تكمن فى ذاكرته التى ظلت تعى على امتـداد عشرين قرنا كونه وحدة غير قابلة للتفتت » . « فى حديث مع محرر معاريف ١٩٦٩/٨/٧ » .

وهزاز حينما يقول هذا انما يريد أن ينفذ منه الى دور الاديب الصـهيونى وتحديده .. ان هـذا الدور الذى يعيه جميع الادباء الصهـاينة دون أن ينص عليه هزاز .. يتحدد فى العمل على تغذية هذه الـــذاكرة الجماعية لدى الجماهير اليهودية .. الذاكرة التى تعى وحدتهم كشـعب وليس كجمـاعة عقيـدة .. بحيث لا تسنح لهم الفرصة فى لحظة للانفلات من أسوار العزلة والانصهار فى شعوب البلدان التى يعيشون فيها ، وهذا هو جوهر الرسالة فى الادب الصـهيونى مهما تغـايرت موضوعاته وأشكاله .

اساليب التعبير الادبى الصهيونى

قبل قيام اسرائيل كان الاسلوب الاساسى الذى يتبعه أدباء الدعوى الصهيونية للوفاء بدورهم هـذا .. هو أسلوب الاحيـاء القومى للوجدان اليهودى ويتمثل هذا الاسلوب فى الـكتابات الادبيـة التاريخية التى تستمد مادتها من التاريخ الاسرائيلى القديم وتنسج اسـاطير التمجيد والبطولة حول الشخصيات التاريخية القديمة فى صور ادبية حديثة .. أو تصـوغ أحـداث الحيـاة اليهودية الحديثة فى اطار تاريخى قديم يرمز اليها وينتهى بها الى خاتمة التجمع والانتصـار السعيدة .. وذلك لتحريك النوازع القومية واذكاء آمالها لدى اليهود فى العالم ، هـذا الى الـكتابات الادبيـة السـاعية الى تمجيد تراث الحياة اليهودية المنعزلة فى الجيتو «الاحياء اليهودية الخاصة فى أوربا خـلال العصـور الوسـطى وتقابل حارة اليهود فى الشرق » وتوقير نموذج خـاص لحياة اليهودى الخالص باعتباره العنصر الاساسى الذى كفل للجماهير اليهودية امكانية عدم الذوبان فى المجتمعات المختلفة .. هـذا فضـلا عن الـكتابات العـازفة على وتر الوشيجة التاريخية التى تربط بين الشعب اليهودى والارض الفلسطينية.. بالاضافة الى الكتابات القاصدة الى خلق البطل اليهودى المعصوم من الزلل ومن التعرض لنوازع الخوف والتردد وما الى ذلك مما يميز البشر فى عمومهم .

واليوم وبعـد قيـام الدولة ببضع وعشرين سـنة وبعـد انتصـار ١٩٦٧ نجد ان هـذه الاساليب كلها ما زالت قائمة وان كان الاسلوب التاريخى قد تضـاءل

حجمه ويبـدو وكأن معينه قد نضب فى أذهان الادباء الاسرائيليين أو أن ظروف العصر قد تجاوزته فى نظرهم فلم يعد قادراً على الوفاء بالدور المطلوب ، ولذا يلاحظ أن الاقبال عليه كاد أن يتوقف بحيث لم يعد هناك سوى عدد قليل جداً من الادباء يمارسون الـكتابة به ومعظمهم من المخضرمين .

وفى مقابل هـذا نجد الغلبة اليوم لاسلوب آخر يقوم بالدور الاكبر فى مهمة آثارة مشاعر الانتماء القـومى لدى الجماهير اليهودية فى العالم بما يحقق فى المرتبـة الاولى العنصر الاول من عناصر العقيدة الصهيونية وهو عنصر الشعب اليهودى الواحد . أسلوب له ارهاصات قديمة غير أن التركيز عليه بدأ حديثاً ، وهذا الاسلوب يتمثل فى ذرف الدموع واقامة المناحات على الضـحايا اليهودية فى تجارب العذاب القديمة .. مناحات ودموع على كل لون وفى جميع الأشكال .

قصائد أبياتها من الدموع .. مسرحيـات حوارها نحيب وموسيقاها الحان جنازات .. روايات شخصياتها واحداثها مكللة بالسواد .. أقاصيص كل ما فيها ينطق بمشاعر الاسى والحداد .. مقـالات سـطورها ولولة وعويل .

عالم كامل من السواد والصراخ والآهات .

كتلة أدبية ضخمة ما زالت فى اتساع يطلقون عليهـا هناك .. أدب النكبة .

ولـكن ما المراد من كل هذا ؟

أهو انفعال جماعى مفاجىء بالعـذاب القديم وتمثل أدبى للانفعال ؟

فى نهاية عام ١٩٦٦ قامت باحثة اجتماعية اسرائيلية

اسمها جئولة هكاهن باجراء مسح اجتماعي بين طلبة المدارس الثانوية في تل أبيب حول المفاهيم القومية ، وجاءتها الشريحة الكبرى من الاجابات على أحد الاسئلة حول ما يعتقد الطالب الاسرائيلي انه يربطه بيهود العالم المعروفين في التعبير العبري الدارج بيهود المنفى .. جاءت الاجابات تقول : « يهودي المنفى اجنبي بالنسبة لي .. غير انه أخي في المعاناة » .

وثارت قضية ومشكلة ، ودارت المناقشات — حتى في الكنيست — وانتهت الى توصية تتحدد في ضرورة الاقلال من التركيز في المقررات على عنصر العذاب والمعاناة باعتباره من عناصر الوحدة بين ابناء الشعب اليهودي مع الاتجاه الى التركيز على سائر الوشائج التاريخية والدينية والعرقية التي لا يعيها الجيل الجديد نتيجة الاهتمام بابراز دور العذاب في تجميع اليهود .

مخطط هو اذن أسلوب الدموع .

مخطط يشمل جميع أوجه النشاط التعليمي والتربوي والفكري والتثقيفي ويلعب فيه الادب دوره المرسوم .

من المحقق انه سترتفع في اسرائيل أصوات بالاحتجاج ضد هذه النتيجة بحجة ان هذه ليست طبيعة الادب . وان الادب لا يتأتى بالتخطيط الجماعي وانه اي الادب ظاهرة ذاتية يتحدد موضوعها وابعادها باحساس الكاتب وحده خاصة في مجتمع يلبس ثوب الديمقراطية مثل اسرائيل . ولكن ما رأى أصحاب هذه الاصوات في دلالة السؤال التالي :

« هل تعتقد ان أدبنا يخضع لضغوط صريحة أو مستترة تؤثر على طريقة كتابة الأدباء ؟ »

ان هذا أحد الاسئلة التي وجهت الى مجموعة كبيرة

من الادباء الاسرائيليين ضمن استفتاء ادبى عام اجرته صـحيفة « عل همشـمار » فى نهاية عام ١٩٦٩ حول ظروف الادب فى اسرائيل تحت عنوان «الادب والعصر»

وما راى أصحاب أصـوات الاحتجاج فى اجابة على هذا السؤال للأديب دافيد لازار بالملحق الادبى لصحيفة « عل همشمار عدد ١٩٦٩/٩/١٢ » تقول :

« لم اسمع قط عن وجود ضغوط صريحة أوخفية. ولـكن اذا تحدثنا عن كل أنواع « الاغراءات » هـذا اذا استخدمنا لفظـا محاذرا فانى أقول نعم انهـا موجودة « المنح والجوائز ، والرحلات الخارجية والاسكان وسائر « الصدقات » التى من هذا النوع » ولا يمكن فى رأيى أن تتوفر ظروف من حرية الانتاج الادبى الا اذا استطاع الأديب أن يكون مستقلا من الناحية المـادية غير محتاج لصدقات الـكرماء من « المؤسسات والهيئات المختلفة وما الى ذلك » .

والهيئات المختلفة التى يشير اليها لازار فى اجابتـه قد تكون المؤسسـات الحزبية التى تسعى الى تجنيـد الادباء ــ والتجنيد يكون عادة بالاغراء وليس بالضغوط ــ من أجل الدعوة الى مبادئها وترويج أهدافها داخل اسرائيل وقد تكون المنظمة الصهيونية العالمية التى تقوم بالدور الأسـاسى فى دفع يهود العـالم نحو الهجرة من الخارج وقد تكون وزارة الهجرة والاستيعاب التى تعمل على استبقاء المهاجرين والقضاء على ميولهم الى النزوح من جديد .

ومع ذلك فلو برأنا الادباء الاسرائيليين فى مجموعهم من تهمة الاستجابة للاغراءات .. فانه لايمكن لاحد أن يعترض على حكم نصدره بأن أديب المناحات الاسرائيلى

متأثر فيما يذرفه من دموع بحالة سيلان الدموع العامة التى يفرضها ضغط الرأى العام كوسيلة ناجحة لاجتذاب يهود العالم . وبعد اعتذار لهذا الاستطراد .. اطرح السؤال الذى كان واجبا من قبل وهو : كيف يلعب أسلوب الدموع الادبى هذا دوره بالنسبة ليهود العالم , وتجاه هدف تجميع أحاسيسهم حول الفكرة القومية ؟

والاجابة ميسورة لكل من يخوض فى دهاليز هذا التعبير الادبى .. ان هذا الاسلوب يخاطب اليهودى العالمى قائلا :

أيها اليهودى ! العذاب والنكال قدرك المحتوم . ان ما تنعم به اليوم من طمأنينة ليس سوى حدث عارض قد يختفى فى أى لحظة والدليل على ذلك كل تجارب العذاب القديمة واليك تفاصيلها .

هكذا يخاطب أدب المناحات الاسرائيلى الانسان اليهودى خارج اسرائيل وهو يقص عليه عادة بطريقة ميلودرامية فاقعة صورا من العذاب اليهودى القديم . يقول هذا الاسلوب لليهودى العالمى :

اذا أردت طمأنينة دائمة لك ولابنائك من بعدك فليس أمامك الا طريق واحد .. هو أن تلجأ الى أسوار القلعة الاسرائيلية فهى كفيلة بحمايتك وتوفير الامن الدائم لك أما ما يخاطب به هذا الاسلوب الادبى الانسان الاسرائيلى الذى يواجهنا اليوم .. فأبشع من أن يخطر على بال أحد ممن يتعاطفون مع هذا الادب فى العالم . ان هذا الاسلوب يخاطب اليهودى فى اسرائيل قائلا : اما ان تقتل العرب على هذه الارض اليوم واما انك ستقتل غداً فى كل بقاع الارض كما كان يحدث لاسلافك الذين تطالع قصصهم الآن .

هذا فيما يتعلق بالاسلوب الادبى الغالب اليوم

لتحقيق هدف استيلاد الانتماء القومى لدى يهود العالم عن طريق اذكاء احساسهم بالاضطهاد ، ومن اللازم أن نشير هنا الى ان أدب النكبة على نحو خاص يلقى رواجا كبيرا فى ميدان الترجمة عن العبرية الى اللغات الاوربية بالاضافة الى ما يكتب منه فى هذه اللغات مباشرة .

وبالاضافة الى هذا الاسلوب .. نجد أسلوبا آخر يسعى الى تحقيق عنصر الارتباط اليهودى بالارض العربية فى نفس الاسرائيلى المقيم والمهاجر الجديد المستجلب .

وهذا الاسلوب رغم قدمه فى التعبير الصهيونى الادبى .. ينتحى اليوم منحى جديدا فى طريقة تعبيره عن الرباط «المقدس» بين اليهودى والارض العربية .. منحى يخالف ما تعودناه من قبل فى الادب الصهيونى من اللجوء الى التراث الثقافى الدينى اليهودى من كتابات توراتية وتلمودية وكتابات للحكماء الدينيين فى العصور الوسطى لاستعارة مواقف واحداث وأمثال وأماثيل تدرج فى سياق التعبير الادبى الحديث للتدليل على قيمة الارتباط بالارض المقدسة مع توجيه السياق الى ما يفيد تحويل مدلول تلك التراثيات المستعارة من الارتباط الدينى والروحى بالارض الفلسطينية الى ارتباط عضوى مادى . ذلك ان أسلوب التعبير الادبى الشائع بعد الحرب بدأ يقصر نفسه فى الدعوة الى التشبث بالارض على استقاء مدده وزاده العاطفى من الموقف الراهن وحده بما يحيط به من ملابسات دونما استنجاد بالتراثيات المؤيدة المؤازرة .

ولا شك عندى فى ان هذا المنحى الجديد فى مسلك

التعبير الادبى الصهيونى الداعى الى الارتبـاط بالارض فى اسرائيل .. انما يكشف من زاوية ما عن فدآحـة الازمة الحياتية التى يعيشها الانسان الاسرائيلى فى ظل ظروف الحرب المستمرة بما لا يتيح له فرصة التمعن فى تلك التراثيات واستلهام المدد النفسى منها فى أزمته الراهنة الامر الذى يدفع التعبير الادبى الموجه بالتالى الى اسعاف حمى هذه الازمة من خلال الموقف الراهن المباشر وملابساته موضع الاهتمام والذى لا يستطيـع القارىء الاسرائيلى التحويم بعيدا عنه فى تاريخيـات وتراثيات قديمة وعقيمة فى نظره بالنسبة لضـغوط اللحظة الراهنة وآمالها .

ويؤكد ذلك عندى .. ما يتردد كثيرا فى حلقـات الفكر التى تنشر على اعمدة الصحافة الاسرائيليـة .. على السنة النقـاد والمفكرين الاسرائيليين من انصراف الانسـان الاسرائيـلى عن متـابعة الـكتابات الادبيـة المتحذلقة فى محاولة الاستقصاء التاريخى والاحالة الى التراث وميله الى الـكتابات الادبيـة المبـاشرة للواقع الراهن .. الوليدة الفورية للحدث والملبية لاحتياجات اللحظة ومقتضياتها النفسية .

ويحيلنـا هـذا الاسـتطراد الى ذلك الـكم الهائل الفج فى نوعيته من الانتـاج الادبى العبرى بعد الحرب والذى أشرنا اليه فى صدر حديثنا . ذلك ان هذا النوع من الانتاج يمثل قطاعا غالبا من الادب المنشور بعـد الحرب .. رغم ما يبديه النقاد الجادون من تحفظات تجاهه ورغم ما يثيرونه ضده من أدلة الدحض ــ على المعايير الجمالية والانسانية العامة ــ فى حلقات النقاش وعلى صفحات الملاحق والمجلات الادبية . ويبـدو أن

ما يضع هذا النوع الرديء من الانتاج الادبي موضع الغلبة والتسيد - بالاضافة الى احساس الكتاب برواجه لدى قطاع عريض من القراء - هو الدفع الرسمي له من قبل الهيئات والمؤسسات الرسميه المسئولة عن التوجيه والاعلام .. كي يوفر لدى الانسان الاسرائيلي - بما يحمله من نماذج البطولة الفردية والجماعية العديدة فى حرب ١٩٦٧ وما يقدمه من تمجيد للروح العسكرية والحضارية الاسرائيلية وتسفيه للقوى العربية وحط من شأن الانسان العربى فى ميدان القتال - حالة من التعادل السيكولوجي تجاه ضغوط الواقع اجتماعيا وحربيا وفى مواجهة سيل آخر من التعبير الادبى الواقعى الحر المعبر فى مرارة عن رفض طبيعة الواقع الاجتماعى الاسرائيلى والسخط على ميول التوسع الصهيونية وسياسة الحرب التى تتمسك بها السلطة الاسرائيلية تجاه العالم العربى بما يجلب التعاسة والشقاء على الفرد الاسرائيلى .

ومما يؤكد وجود الدفع الرسمى لكتلة الادب الملبى لاحتياجات اللحظة ذلك الخطاب الذى تقدم به آيجال آلون نائب رئيسة وزراء آسرائيل باعتباره وزيرا للتربية والتعليم الى مؤتمر الادباء العبريين يناشدهم فيه التنادى بالعمل على تغيير هذه النغمة الادبية التى تلتقط الوان السواد فى الواقع الاسرائيلى - فى الادب الساخط - وتجاوبها بمثل لونها دون محاولة نحو تبديد هذه الالوان على أرض الواقع بجرس أدبى بهيج مستبشر يشيع الامل فى النفس الاسرائيلية . وكان من بين ما قاله آلون فى خطابه فى معرض استنكار موقف الادباء الساخطين اليوم فى اسرائيل والمقارنة بين جيلهم

وجيل آلون فى حرب ١٩٤٨ : فى الحرب القديمة كان من أصدقائنا من يسقطون صرعى ، وكانت وطأة الحرب مريرة وتكاليفها باهظة ، ومع ذلك كانت تتردد على السنتنا أشعار الامل التى تخرج تلقائية من شعرائنا المحاربين . ويعلق أحد النقاد الاسرائيليين بصحيفة معاريف على هذا الخطاب مرددا دعوة آلون بقوله : « لماذا أصبحت الحروف المربعة « يقصد الحروف العبرية » اليوم قاصرة على أداء معانى اليأس والحزن»

ولا أظننى مبالغا ان قلت ان هذا التحامل الظاهر ضد التعبير الادبى التلقائى فى اسرائيل من ناحية ودفع كتلة ادبية معادلة له فى الاثر النفسى من ناحية اخرى ، لا يعكس قلق السلطة الاسرائيلية ازاءه كمجرد تعبير أدبى فحسب .. بل انه يعكس بالدرجة الاولى مخاوف أصحاب السلطة فى اسرائيل من الاثار التى يتركها هذا التعبير الحر على نفوس الجماهير عندما يبصرها بدافع معاناتها ويطرح أمام عينيها تصويرا أدبيا واضح المعالم لابعاد مشكلاتها وبواطنها فيحيلها بذلك الى طريق السخط المنظم والثورة .

ويمكننا أن ننتهى عبر هذه الاطلالة السريعة على أوضاع الانتاج الادبى العبرى فى اسرائيل بعد الحرب الى تحديد ثلاث كتل من المضامين الادبية ترد فيه :

الكتلة الاولى هى كتلة الادب الداعى الى الاهداف الصهيونية الاساسية وعلى رأسها هدف تمثيل اليهود فى العالم كله واقناعهم بكونهم شعبا واحدا ذا انتماء قومى واحد .. وهدف ربط هذا الانتماء القومى المصطنع بالارض العربية التى تكشف الحركة الصهيونية تدريجيا عن اتساع رقعتها الداخلة فى حدود ما يسمى بالوطن التاريخى اليهودى ..

والكتلة الثانية هي كتلة الأدب الملبى لاحتياجات اللحظة النفسية والمعالج للترديات السيكلوجية التي تعتمل في باطن المجتمع الاسرائيلى بفعل طبيعه البنية الاجتماعية الضاغطة فيه .. وهي كتلة منتمية الى أساليب الحركة الصهيونية في التغرير بالجماهير الاسرائيلية واليهودية وسوقها الى ساحة الصراع مع العرب كأدوات بشرية فى يدها لتنفيذ مشروعها الاستثمارى على الارض العربية . والكتلة الثالثة هى كتلة الادب الساخط الناقم على طبيعة البنية الاجتماعية الاسرائيلية وعلى استخدام الانسان اليهودى المخدوع كوقود لماكينة العمل الصهيونية .

وبالطبع فلو شئنا أن نترجم هذه الكتل الادبية الى مفردات القوى السياسية والاجتماعية لوجدنا أن الكتلتين الاوليين تمثلان الحركة الصهيونية ومموليها ومستثمريها فى آن من كبار الرأسماليين اليهود فى العالم والمتحالفين مع القوى الرأسمالية الكبرى فى العالم والسلطة الاسرائيلية أداة الادارة للمشروع الصهيونى وان تنوعت كتلها بين يمين ويسار وقطاعات الجماهير الاسرائيلية الساقط بعضها فى أحابيل هذه السلطة والذى ابتلع الشص المموه بزخارف العقيدة القومية الصهيونية والمؤمن بعضها بخرافة الوطن التاريخى القائمة على الخزعبلات الدينية .

هذا فى حين يشير الاتجاه الادبى الساخط الحزين على أرض الواقع الاجتماعى والسياسى فى اسرائيل الى جماعات التعطل والتسول والتشرد على نمط الهيبز والى جماعات التمرد والسخط العنيف على الواقع الاجتماعى مثل جماعة الفهود السوداء المنادية بحقوق

الطوائف اليهودية الشرقية اجتماعيا والى جماعات التمرد والسخط السياسى على الواقع الاجتماعى بل وعلى الصبغة الصهيونية لهذا الواقع وما يدعو اليه من شعب يهودى واحد مرتبط بالارض العربية .. وهى جماعات داعية الى التخلى عن هذه الافكار والانفتاح على العالم العربى بصورة أو بأخرى بما يفتح طريقا حقيقيا للثورة الاشتراكية فى هذه المنطقة وتمثل هذه الجماعات السياسية جماعات اليسار الجديد الاسرائيلى . ولقد كان ظهور هذه الجماعات الساخطة وتبلورها على شكل الظواهر الاجتماعية والسياسية بعد حرب ١٩٦٧ تماما مثل كتلة الادب الساخط المعبر عنها التى أخذت شكل الظاهرة الادبية الملموسة فى أعقاب الحرب الاخيرة .

الجزء الاول

شعر الحرب في إسرائيل

- نغمات الانكسار والحزن
- ثلاث أغان : حدفاه هركافن
- ضيق عابر : شوشانه بيلوس
- احساس : يصحق بولاف
- الى متى ؟ : يعقوف ريمون

« رغم قشرة الصلافة والغرور الظاهرية ، فان قاع المجتمع الاسرائيلى يضطرب بترديات وتخبطات سيكلوجية ، ويموج بتوترات عصبية يترنحون تحت وطأتها فى ذلك المجتمع .

نغمات الانكسار والحزن

يخطىء كل من يظن ان الاثر الوحيد الاعم الذى اشاعته الحرب الاخيرة بين جنبات المجتمع الاسرائيلى هو أثر النشوة بالانتصار العسكرى والاسترخاء النفسى على المستويين العام والفردى .. استنادا الى مكاسب هذا النصر وركونا الى اقتطاف ثماره .. ذلك ان قاع المجتمع الاسرائيلى يضطرب فى الحقيقة بترديات وتخبطات سيكلوجية ويمور بتوترات عصبية يترنح تحت وطأتها الانسان فى ذلك المجتمع .. رغم قشرة الصلافة والغرور الظاهرية.. نتيجة الاحساس بتكاليف الحرب المستمرة ووطأتها التى تضاف الى وطأة القصور فى البنية الاجتماعية والاقتصادية مما يزيد من فداحة الازمة الحياتية العامة التى يعانى منها الفرد فى اسرائيل .

وان نظرة مستعرضة على الانتاج الادبى العبرى فيما بين يونيو ١٩٦٧ وحتى اليوم لتوفر لنا نافذة زجاجها أشد ما يكون شفافية وصفاء للاطلال على هذه الحقيقة .

ذلك ان من السمات العامة التي تسم الانتاج الادبى فى اسرائيل فى هـذه الفترة سمة اقرب ما تكون الى المزاج السوداوى المضطرب المشبع بنغمات الانكسار والتأسى حينا ودقات استنهاض الهمم الخائرة واستنفار العزائم المتراخية حينا آخر .

وفى الصفحات المقبلة نعرض لثمانية نماذج من الانتاج الشعرى فى اسرائيل بعد عام ١٩٦٧ وهى نماذج تطرح رؤى شعرية متباينة فى النظر الى الواقع الاسرائيلى .

واذا كنا نعمد الى تناول الواقع الاسرائيلى فى البداية عبر الرؤى الشعرية فانما ذلك لان الشعر بطبيعته وبنسيجه المحدود يكشف عن أعماق التجربة الادبية فى الواقع بصورة اسرع من التعبير النثرى ذى النسيج الممتد المترامى .

كذلك فان اتجاهنا الى تناول رؤى شعرية لدى شعراء متعددين انما ينبع من حرصنا على عدم تجاوز معايير الامان فى استخلاص دلالات عامة من خلال رؤية شاعر واحد للواقع وذلك تحسبا لاحتمال أن تكون رؤية الشاعر الواحد للواقع العام رؤية خاصة نابعة من داخله ومحكومة بتجربته الذاتية المحدودة .. ولذا فان الاستناد الى رؤى شعرية متعددة للواقع الواحد يكفل حدا كافيا من الامان بالنسبة لاحتمال تعميم العناصر المشتركة فى هذه الرؤى وامكانية ردها الى محيط التجربة الواقعية والنفسية العامة فى المجتمع الاسرائيلى والتى تمثل التربة العامة التى تنبت فيها الرؤى الشعرية على تدرج قاماتها والوانها .

من بين الرؤى الشعرية الثمانى .. تتميز اثنتان بخاصة الرؤية ذات البعد التاريخى التى تقصد الى

ربط الواقع الراهن بسياق تاريخي عام بحيث لا يبدو هـذا الواقع مساحة حدثية وزمنية قائمة بذاتها ، بل حلقـة فى سلسلة من التجارب التاريخية الممتدة .

ويقدم هاتين التجربتين الشعريتين الشاعران يعقوف ريمون ويصحق بولاق . هـذا بينما تتجه الرؤيتـان الثالثة والرابعة لدى الشاعرتين حدفاه هركافى وشوشانه بيلوس أساسا الى تناول الواقع تنـاولا كليا بصـورة شاملة بما يرسم لوحة عامة له .

هـذا فى حين تنحو الرؤيتان الخامسة والسادسـة لدى الشاعرين يصحق شـاليف وبنحاس بلدمان الى تناول حالة موضـعية مترتبة على الحرب . ثم تتجه الرؤيتان الشعريتان السابعة والثامنة لدى الشـاعرين يعقوف باسار ويهودا عميحاى الى تقـديم نمطـين من المواقف وردود الافعال النفسية ضد صناعة الحرب فى الجانب الاسرائيلى .

ولعله من الضرورى ان نشير فى مستهل هذا الفصل الى أن طريقة تناولنا لـكل قصيدة ــ وكل قصـة فى القسم النثرى ــ بتقطيعها اثنـاء العرض أو سـوقها متكاملة ثم التعليق عليها بعد ذلك .. انما تتوقف على طبيعة بنـاء كل منهـا وما اذا كان يسمح بتقطيعها الى فقرات ذات وحدة فى المعنى أم لا .

كذلك فانه من الجوهرى أن نثبت ابتـــداء أن التفسـيرات الواردة للقصـائد هى حصـيلة التفـاعل التلقـائى بين النـاقد ــ صـاحب الدراسـة ــ وبين مضامين القصائد ــ والقصص بعد ذلك ــ وايحاءاتها . من خـلال موقف التشـبع بروح الـكتابة الاديـة الاسرائيلية والاحاطة الشاملة بظروف الـكتابة الادبية

فى اسرائيل وروح التذوق الادبى لدى النقاد الاسرائيليين . ومع كل هذه الضمانات التى تكفل للناقد العربى سياجا قويا يحميه من الانزلاق الى وهاد « التفسير بالمرغوب » للأعمال الادبية الاسرائيلية .. الا ان منطق الامانة العلمية يستوجب الناقد أن يشير الى أن للقارىء العربى الحق كل الحق فى التفاعل الحر مع القطع الادبية الاسرائيلية الواردة بالكتاب مع الاحتفاظ بتفسير الناقد كمجرد ضوء هاد فى الفهم العقلى والتفاعل النفسى مع هذه الاعمال .

وختاما لهذه الملاحظات المستطردة فانه من الحيوى لفهم الواقع الاسرائيلى من خلال النماذج الادبية المطروقة .. أن نذكر أن هذه النماذج لم تقدم باعتبارها نماذج متفردة تعبر عن حالات خاصة من الانتاج الادبى الاسرائيلى بل انه قد روعى فى اختيارها وقبل أن تخضع للترجمة عن العبرية أن تكون نماذج ممثلة للتعبيرات الادبية النمطية السائدة فى الانتاج الادبى الشعرى عامة .

***

ولعله من المناسب أن نبدأ جولتنا بين الرؤى الشعرية بما رقمناه بالرؤيتين الثالثة والرابعة حيث انهما توفران لنا فى البداية كشفا واضحا عن أبعاد الواقع بصورة كلية مما يتيح لنا متابعته فى فهم واضح بعد ذلك مشدودا الى سياقه التاريخى فى الرؤيتين الشعريتين الاولى والثانية ثم نعرض فيما بعد لرؤية الخطوط التفصيلية الموضعية فردود الافعال حياله .

ثلاث أغان ..

حدفاه هركافى (١)

يصطدم القارىء فى قصيدة حدفاه هركابى « ثلاث أغان » بتعبير أدبى يمزج ما بين أحاسيس الفزع والعزلة والاغتراب والتردى فى متاهات الضياع.

واذا ما ربطنا بين هذا التعبير الشعرى المغرق فى السواد وبين تعبير القلق العام الذى كان مرئيا فى الصحافة الاسرائيلية خلال فترة المعارك بعد ١٩٦٧ وهو القلق الناتج عن تزايد اعداد الجنود القتلى على ضفة القناة وتشديد هجمات المقاومة الفلسطينية داخل المدن الاسرائيلية .. لامكننا أن نقع دون ما افتعال على محيط الدائرة الواقعية والنفسية التى يجاوبها هذا التعبير الشعرى . انها دائرة افتقاد الاحساس بالامان فى اللحظة الراهنة واليأس من توافره فى المستقبل وهى دائرة خط محيطها ورسم مدارها الرماد المتخلف عن انطفاء جذوة الامل التى توقدت فى الافق

---

(١) عل همشمار ١٩٦٨/١٢/١٣ . الملحق الادبى .

الاسرائيلى – عقب الانتصار السريع – فى اخضاع ارادة المقاومة العربية العامة اخضاعا نهائيا .

فى بداية القصيدة تبدأ الشاعرة تصوير الواقع المحيط بها فى صورة رامزة بعيدة عن المباشرة .. تقول :

صمت ووجل
شـــارع متوهج .. قاس
كغريب .. عن الوعى
خرج ..
قمر صريع يلامس .. جسدى ..
فجاءة .. يتحول الى معول
معلق .. مشحوذ .. يبرق .

هكذا يبـدو فى وضـوح خلف الصـورة الشـعرية الضبابية واقع ملتهب متوهج بالقسوة بينما الامل الذى تلامسه الشاعرة ملامسة حسية يتجاوز حد الافول – عندما يتحول الى قمر صريع – كى يستحيل الى خطر داهم فى صـورة معول مشـحوذ يبرق بالخطر فوق راسها .

الطفل فى حضنى .. مقرور
مبلل ..
« دعيه فى الزاوية » .. « غطيه بالرداء »
وصدى يبتلعه صدى .
« لـكن » .. « هيا » .. « انتظرى » .

ان الامل القريب الذى تحتويه الشاعرة فى حضنها وبين ذراعيها لا يبدو دافئا كما ينبغى للطفل فى حضن أمه فهو ينتفض مرتعشا غير مستقر . بينما هى واقعة فى ربكة تجاهه .. فهل تلقيه فى الزاوية – كما يراودها ايحاء – متخلية عنه .. أم تزداد تمسكا به فتحميه

بالرداء مدافعة عنه كما يراودها ايحاء آخر .. انهـا لا تدرى ما الذى عليها ان تفعله فهى واقعة فى الحيرة .

رباه ! رباه !
الظلمة الى هـذا .. المدى
موحشة ..
أفق اسود .. كلوحة على جبينى
كم على ان اسـقط ؟
كم على ان اتراجع ؟
فما أكثر الـكواكب ضـدى .
وآنذاك .. يبـدأ الانسـان
خروجا .. عن وعيه .
الآخرون .. عنه يعلمون
غير أنهم .. فى أى مرة
معه ..
لا يكونون ..

هكذا تستأنف الشاعرة تعبيرها بصـورة أقرب الى المباشرة فهى تكشف فى وضوح عن الظلمة التى تكتنف واقعها وتبدى نفاد صبرها تجاه ما يحيط به من اخطار وما يتهدده من سقوط لـكثرة الخصوم حوله وحولها .. ثم تنتهى الى ان هـذا الواقع الذى تفتقـد فيه العون والسند من الآخرين يجبر الانسان على فقد وعيه والخروج عنه تحت وطأة تكاليفه واعبائه .

وبعد ذلك .. من هنالك
طردونى ..
هكذا .. بأقصى حقدهم
أبعدونى ..
وأنا .. لم يعـد لى

ما أرجع اليه .
لا مدينــة ..
أبعث فيهـا حيـاتى ..
ولا رقعة أرض ..
لدفنى فى مماتى ..

فى هـذه الفقرة الختامية تتباعد الشاعرة تماما عن التعبير الشعرى الرامز وتتجه بألفـاظ مباشرة صريحة الى التعبير عن محنتها أو ما تصور انه محنتها . فهى تقول ان النهـاية التى توشك أن تنزل بها هى نهـاية الضيـاع اللانهائى فى الحياة والموت .. فهى ان اكتملت رؤيتها للواقع وتبـدد الحلم والامل لن تجد ما ترجع اليه .. لا مدينـة تقيم فيهـا حيـاة جديدة ولا قطعة ارض توارى فيها عند مماتها .

بهذه اللمسة تنهى الشاعرة التعبير عن رؤيتها للواقع المحيط بها بما يدل دلالة قاطعة على ان تجربتها الشعرية ليست محصورة فى اطار ذاتى بل انهـا تعبير عن الانا العامة فى مجتمعها . وهنا تلزمنا وقفة .

ان الشاعرة تصور الامر وكأنه سينتهى بالانسان فى مجتمعها الى الضيـاع الشـامل . فهل يمكن أن يكون هـذا تعبيرا عن رؤية صـادقة نابعـة من احسـاس الشاعرة دون توجيه خارجى أو محاولة منها هى نفسها لتوجيه هذه الرؤية ؟

هـذا هو السؤال .

ولست أظن شخصيا .. وان كان هـذا الظن يخالف آمالى الطبيعية .. ان حجم الضـغط العسكرى الذى مارسناه حتى تاريخ نشر هـذه القصـيدة عام ١٩٦٨ يمكن أن يؤدى الى هـذا الاحسـاس الشـامل بفقـد

الطريق نهائيا لدى الانســـان الاسرائيلى كما تحاول الشاعرة ان تصور الامر

اذن ومرة ثانيــة .. ما هو القصــد الذى تبتغيــه الشــاعرة من وراء هــذا التصــوير الذى حرصت فى أدائه على الابتعاد عن الصورة الرمزية الغامضــة التى استخدمتها فى بداية قصيدتها واتجهت الى اســتعمال اللفظ المباشر ؟

هل يمكن أن تكون الشاعرة ـ وسنرى بعد قليــل ان هذا الاتجاه ليس وقفا عليهــــا ـ صنيعة للعرب تهدف الى تدمير احســاس قرائها الاسرائيليين بالامل فى مواجهــة العرب عن طريق هذه الرؤية المفزعة ؟

ان الامر فى حقيقته عكس ذلك بالطبــع . ذلك ان بث الحقد ضد العرب فى النفس الاسرائيلية واحدة من الوظائف التى يتبناها الادب المجند والادباء ذوو النزعة القومية المتطرفة فى اسرائيل (١) .

على هــذا النحو يكون الامر من جانب مثــل هــذا الاديب الخاضع لتوجيه الخط القومى الصهيونى ..

استغلال ظواهر المقاومة العربيــة ضــد العــدوان الاسرائيلى لبث الهلع والرعب فى نفس الفرد الاسرائيلى حتى ليصور له الامر كما رأينا على أنه يقف على عتبات الضــياع الشــامل فى حيــاته ومماته . وبالتالى يكون هــذا الفزع فى حــد ذاته مدعاة لاســتنفار مزيد من

---

(١) يتفق ذلك مع ما ذهب اليه قدرى حفنى بحثه النفسى تجسيد الوهم من أن مايسعى اليه اسرائيل هو تضخيم الشــعور بالاضطهاد لدى الاسرائيليين بحيث يؤدى ذلك الى تضخيم عدوانيتهم . « راجع : قدرى حفنى ـ تجسيد الوهم ـ مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية ـ مؤسسة الاهرام ـ ١٩٧١ »

مشـــاعر الحقد فى نفسه ضد العرب معتقدا أنه بسبقه الى الحقد انما يفل من حقد العرب وينقذ نفسه من هول الضياع المنتظر . من هـــــذه النقطة يمكننا ان نلتقـط بداية الخيط فيما أسمينـاه فى صـدر هـذا الفصـل بالرؤية ذات البعد التاريخى . ولـكن لنبق الخيط معلقا حتى نستجلى بقية أبعاد الصورة الـكلية للواقع الاسرائيلى عند الشاعرة شوشانة بيلوس .

ضيق عابر

شوشانه بيلوس (١)

تقدم الشـــاعرة هنا صـــورة كليـة مشـابهة لمـأساة الواقع الاسرائيلى ، ليس من خلال تقمص الانا العـامة كما فعلت حدفاه هركافى بل باختيار مدخل مخالف من خلال الحديث عن تجربة الطفـل الاسرائيـلى فى واقع الحرب ..

ويلاحظ انها تحافظ فى نسيجها الشعرى على نفس الهدف السابق .. هدف استنفار الحقد والقسوة لدى قارئها ضد العرب من خلال تضخيم مأساته وتكثيفها.

تبـدأ الشـاعرة قصيـدتها متباكية على حال طفل يندب موتاه ويصلي شـاكيا الظلم المحيق بالطفـولة الاسرائيلية نتيجة فقد ذويها بفعل الحرب . تقول :

صلاة طفل فى الحقل
تنادى على الميت
تحكى عن الظلم من تحت
شجرة قديمة ..

(١) معاريف ١٩٦٨/١٠/١٨ . الملحق الادبى

فى مكان ليس من ينتبه فيه ..
لمراى قدمين صغيرتين
تزلان منزلقتين فى جنبة الحقل
بين ظلال متراكمة محتشدة
وأصـوات تبعث الخراب
فى مدارك رقيقة .

بعد هـذه الصـورة المتأسيـة لطفل دفعته أحزانه الى الوحدة فى مكان مهجور .. تتوجه الشاعرة بخطاب حان الى هـذا الطفـل تدعوه فيه الى التخلى عن أحزانه وانفراده الذى يمض النفس بالعذاب . تقول :

قوم فى نفسك أصابع
تعلمت الان فقط أن تتعقد وتتشابك
مرتعدة فى طقس فظيع
عدل فى نفسك احساسا
يهاجم ساعة الانفراد بالذات
كالسنة من لهب يلفح اللحم
فبهذا يمنع الحزن ويزول الحداد

وبعـد ذلك تتجه الشاعرة الى التأسى على الطفـلة الحساسة التى ينشئها أبوها على رهافة الاحســــاس فيجلب لها العذاب فى واقع الحرب.. مبدية استنكارها لهذا النوع من التنشئة وكأنها تقول لقرائها : كى ننقذ أولادنا من عذاب الاحزان فان علينـا أن نجردهم من الاحساس (١) ونبث فيهم الغلظة والقسوة والا لاقوا ما أقصه عليكم من أحزان الطفلة ذات الاحساس ومشاعرها

---

(١) يتفق ذلك مع ما تسعى اليه بالفعل اساليب التربية المتبعة فى الكيبوتزات الاسرائيلية .. « راجع : تجسيد الوهم ، قدرى حفنى ، مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية ، مؤسسة الاهرام ، ١٩٧١ »

باليــأس والحرمان من حقوقها فى الطفولة وآمالها فى الحياة .

تقول :

ان الاب الذى يورث ابنته الحساسية .
يعلم ان الوقت غير مناسب على الاطلاق .
للأحزان .. والـكلمات المنكسرة المـكسورة .
إن جنون اليــأس وخيبــة الامل .
يغرس فى نفسها أحلاما حول واقع ما ..
فى ان كانت لها غاية ومصير .
من العــار أن يضيعا .
بينما الآن مشاهد الطبيعة مينة .
ومرئيــات سقيمة ذابلة .
تترى متلاحقة فى نفسهــا .

وفى الفقرة الختامية توحى الشــاعرة لقرائها بنفس الايحاء عن السواد الحالك والمصير القائم والضوء القليل .. استنهاضــا للهمم .. وان كان ايحاؤها هنــا أقل صخبــا من الايحاء فى القصيــدة الســابقة بما يعكس احساسا أكثر صدقا بأزمة الانسان المحوط بالحرب فى اسرائيل :

سلام أيها الفرح السليب ..
شمس تجاهــد أن تضيىء ..
عبر زجاج قاتم اللون ..
مترب ..
طفولة أمدها قصير ..
أيام عديدة ملأى ..
بانـكسار القلب ..
بالمرارة ..

تحل بالاحزان ..
أما قليــل الــكمال .. قليــل التمام ..
فمخالف لهــذه الايام ..
فهو كالضيــاء الذى فجأة ..
فوق الربى ..
ينطوى ويتبــدد ..
قبــل حلول الظــلام ..

***

على هــذا النحو تنهى الشاعرة تعبيرها عن المــأساة الناشئة بفعل استمرار الحرب بنفس الايحاء الســابق فى القصيدة السابقة ..

ايحاء الظلمة المقيمة والضوء العابر الذى خبا

احساس

يصحق بولاق (١)

من نهاية الخيط الذى تركناه معلقا عند حدفاه هركافى فيما يتعلق باستخدام مؤثرات المقاومة العربية على الحياة الاسرائيلية فى استيلاد أحقاد جديدة لدى الانسان الاسرائيلى تحت ايهام الضياع النهائى.. يمكننا أن نلتقط بداية الخيط فيما أسميناه بالرؤية التاريخية لدى الشاعر يصحق بولاق .

فمن هذه الرؤية على نحو خاص تفوح رائحة التوجيه فى الادب . فهى تستند الى منطلق الرؤية الصهيونية للمشكلة اليهودية فى العالم .. وهى تقوم على تزييف واقع التاريخ فتصور أن اليهودى لم يعذب على مر الاجيال الا لمسالمته ووداعته ولذا فهو يستحق الخلاص بالتجمع فى دولة السلطان الصهيونى .

هذه هى القاعدة الصهيونية لفهم مسيرة التاريخ اليهودى القديم والحديث حتى قيام اسرائيل . وبعد قيامها أضيفت الى هذه القاعدة ملحقات أخرى .

ذلك ان ردود الفعل العربية المقاومة للعدوان

(١) معاريف ١٠/١٠/١٩٦٩ .. الملحق الادبى

الاسرائيلى أصبحت تدرج هى الاخرى فى مجرى التاريخ اليهودى كحلقة جديده من حلقات العذاب اليهودى . منطق غريب يدرك صانعوه على الارجح — فى ظنى — مدى ما فيه من مجانبة للواقع وتجن على الحقيقة ولكنهم يصرون عليه ويستخدمونه فى تكثيف على كل مستويات التعبير والكتابة التاريخية والاجتماعية والادبية والتعليمية والتربوية لاحراز هدف سيكلوجى محدد فى نفس القارىء اليهودى خارج اسرائيل وداخلها .

ولكن فلنقطع هذا الاستطراد حتى يكون تبيننا للهدف من استخدام هذا المنطق من خلال التعبير الاسرائيلى ذاته .

يقول الشاعر يصحق بولاق فى قصيدته «احساس» :

أحس بروائح قوية .
روائح جثث .
روائح لحم .. فى ضرام عنيف
من الزيت .. يحترق .
يشوى على صدر مقلاة من
الرمال . . .
يزيد من رقعتها ومداها .
مصدر عال .

بهذا يفتتح الشاعر قصيدته تعبيرا عن واقع الخسارة البشرية التى تنزلها القوات العربية المدافعة بالغزاة الاسرائيليين وكما نرى فهو يسوق هذا التعبير فى صورة مؤثرة تدعو القارىء الاسرائيلى الى انفعال ألم عميق لمصير هذه الجثث البشرية التى تشوى وتقلى .. دون ما ذكر بالطبع لابشع أنواع القتل

والتعذيب التي يمارسها هؤلاء الغزاة المتجبرون ضد الانسان العربى قبل أن ترتد اليهم النيران فتصليهم وتشويهم على حد تعبير الشاعر .

فى ختام الفقرة يرسى الشاعر قاعدته التى سيشيد فوقها — فى بقية القصيدة — بناءه التاريخى للمأساة اليهودية . فهو — من خلال موقف لا دينى رافض لفكر الخلاص اليهودى السماوى — يقرر أن مقلاة العذاب اليهودى يزيد رقعتها ويوسع مداها مصدر عال أى مصدر سماوى .. وهى اشارة يريد بها الشاعر أن يحدد موقفه من منهج الخلاص اليهودى.. ليس بمجرد رفض فكرة الاعتماد على القوى السماوية فى انهاء العذاب اليهودى .. بما فى ذلك طبعا موقف المقاومة العربية .. بل انه يتجاوز هذا الى ادانة القوى السماوية كذلك بالمشاركة فى هذا العذاب . والقصد من هذا فى النهاية هو ترسيب احساس فى وعى القارىء الاسرائيلى بأن مسئولية الخلاص مسئولية ملقاة عليه وحده حتى ضد القوى السماوية. وبذلك يتهيأ القارىء لتلقى محتوى المنهج الواجب اتباعه لتحقيق الخلاص حسب منطق التوجيه وهو أمر شائع فى الشعر والنثر سنعاود الالتقاء به فى القسم القصصى

بعد هذا ينطلق الشاعر فى تصوير هذا الواقع مشدودا الى سياق تاريخى .

جثث . . .

من أجل تكثيف المذاق .

المرير . . . ،

فى التاريخ الحى الملموس

هكذا يربط الشاعر ربطا تعسفيا بين ما يلقاه غزاته

المعتدون فى الحاسة العربية وبين تاريخ العذاب اليهودى . فهو يرى أن الجثث التى تحدث عنها فى الفقرة الاولى انما هى اضافة جديدة لتاريخ النكال اليهودى .

هكذا يزيف التاريخ ـ الذى يحكم على اليهود بالمشاركة فى صنع مشكلتهم مع العالم المسيحى الاوروبى الاقطاعى والرأسمالى ـ فى سياق رؤية أدبية مستنفرة لمشاعر العداء ضد العرب .

على هذا النحو تقلب صورة الواقع فيوضع العرب موضع المعتدى الذى يمارس تعذيب اليهود .

كلا .. لست فى حاجة
لشرح احداث بالتوتر
المأسوى .. مشحونة
الحديث عن البداية
افضل عندى من
بسط ماتم وما انقضى

بهذه الفقرة يقول الشاعر انه سيتجاوز الحديث عن سلسلة العذاب مفضلا الارتداد الى بدايتها ليمسك

بخيط التاريخ من أوله .. وهو بهذا يوحى لقارئه بعقد مقارنة بين علة نشوء سلسلة العذاب فى البداية وبين الملابسات المشابهة فى الواقع الراهن .

سداد الحسابات فى ظنى
فيما بين النهرين .. بدأ
هناك .. ألقى رب ابراهيم
المهزوم ..
الى نيران الاتون ..

« ملاحظة شعرية : بالمناسبة استكمل الاتون وحفظ

على مر الاجيال منذ أيام ما بين النهرين وحتى معتقلات اوشقيص »

ومنــذ دمرت أوثان
عاموره وســادوم
وأبنــاؤه باطراد
تحت شــعار « لا تقتل »
يقتــلون ..

بهــذا الحديث الميلودرامى يقــدم الشــاعر لقــارئه الاسرائيلى تصوره لمجرى العذاب اليهودى. فالسلسلة تبــدأ عنده فيما بين النهرين أى عند ما سقطت دولة اسرائيل بقسميها الشمالى والجنوبى فى القرنين الثامن والسادس ق.م على أيدى الغزاة الاشوريين ومن بعدهم البابليين . فهناك حيث سبى الاسرائيليون انتهكت حرمة رب ابراهيــم أبى التــاريخ الاسرائيــلى . ومنــذ ذلك الوقت .. يقول الشاعر .. وحتى معتقلات اوشقيص النــازية فى الحرب العالمية الثانية ظل اليهودى يتعذب ويلحق به القتل لمجرد تمسكه بوصية عدم القتل . (١)

هــكذا يصــور الشــاعر المــأساة اليهودية لقــارئه الاسرائيلى محددا علة واحــدة لها هى وداعة اليهودى ومسالمته .. واحجامه عن القتل .

فما الذى يريده الشاعر من هذا ؟

ما هو الاثر السيكلوجى الذى يرمى الى احداثه فى نفس قارئه الذى يعيش فى اسرائيل اليوم بهذا التصوير المزيف لحقيقة المــأساة اليهودية كما يسمونها ؟

---

(١) يتفق ذلك مع ماذهب اليه قدرى حفنى فى كتابه تجسيد الوهم من شــعور الاسرائيليين المعــاصرين بالتمرد على استسلام اسلافهم لما وقع عليهم من عدوان « راجع : تجسيد الوهم : مركز الدراســات الفلسطينية والصهيونية ــ مؤســة الاهرام ــ ١٩٧١ »

ليحيا نبــذ السلبيـــة .
كلمـــاتى . . .

لتــكن كلمــاتى .: فيـــالق .
أشـــواك ..

لتســـقط أركان عالم
منحط .. بزئير جبـــار !

ها هى الاجابة يسارع بها الشارع . فما يريده بعد استثارة الخوف لدى قارئه بتذكيره بسلسلة العــذاب اليهودى .. هو ربط المــاضى بالحاضر .. انه يعود بقارئه بغتة الى أرض الواقع بعد أن حوم به فى أعماق التاريخ.. يعود الى أرض الواقع التى بدأ منها قصيدته حاملا الى قارئه الدرس المســتفاد من تجربة المــاضى المعذب . هو يريد من قارئه أن ينبذ السلبية .. أى أن يتخلى عن السلبية فى ممارسة القتل والمسالمة علة مأساته المزعومة . وهو يريد أن تتحول كلمــاته الى فيالق غازية وأشواك واخزة تسقط أركان العالم المنحط بزئير جبار .

ومن ذا الذى يمثل العالم المنحط الذى ينبغى أن تدك أركانه سوى العرب الذين لا صـــلة لهم ببـــداية العذاب اليهودى فى آشور وبابل ولا بنهايته فى أوشقيص النازية .

هنا نضع أيدينا على وحدة الرؤية بين يصحق بولاف فى تعبيره التاريخى وبين حدفاه هركافى وشوشانه بيلوس فى تعبيرهما الــكلى .. فجميعهم قلق لمظاهر المقـــاومة العربيـــة ضـــد عدوان مجتمعه .. وجميعهم يبث قلقه موجة هائلة من الذعر فى نفس قارئه استعداء واستنفارا

بعينى رأسى . . شـــاهـــدت .

فى يقظـــة .. أو فى منـــام .
ما يشـــبه تمثالا منتصـــبا .
يداه الى أعلى ..
مرفوعتـــــــــــان ..
انه دعاء الامهـــــــــــات :
« ملعون هو من يبعث ..
أولادنا الى مذابح الاوثان ..
القـــاتمة .. الحمراء . »
اللهم ..
الابنـــــــــــاء فارحم ..
والآباء فارحم ..
وضـــع نهـــاية لتقـــديم .
اســـــــحق ..
ذبيحة وقربانا .
هكذا أيها الشاعر ! ! !

فبعد أن أوصـــل يصحق بولاق رســـالته كاملة الى قارئه فى الفقرة قبـــل الختامية وحدد له فيهـــا طريق الخلاص بطريقة عقلية على شكل معادلة تقول :

« كنت مسالمـــا بالامس فقتلوك .. فكن قاتلا اليوم تســـلم » نراه يعود فى فقرته الختامية ليؤكد هـــذا الاقناع العقلى بشحنة عاطفيـــة يضـــع لها اطـــارا دعاء الامهات الاسرائيليات اللائى ثكلن أبناءهن فى الحرب : باستمطار اللعنة على من يبعث أولادهن صناديد العدوان الى مذابح الاوثان ويترجى وضع نهاية لسلســـلة عذاب اسحق التى يمثل العرب حلقتها الجديدة !! وياللعجب ..

مع كل صـــــباح ... عبر القناة يتساقطون . .
يذوون كاعواد زرع أخضر .. من جذورهم .. يقلعون !

الى متى ؟ ..

يعقوف ريمون (١)

فى هـــذه القصيدة نلتقى بنفس الرؤية القلقة للواقع الاسرائيلى مع نفس القصـــد الى ربط الواقع الراهن بسياق تاريخى عام .

يفتتح الشاعر قصـــيدته بمحاولة لاستشراف الامل ورسم صورة متفائلة لمستقبل مشرق يطل من بين ركام الواقع تحمله انفاس السماء ونفحاتها الواعدة بالخلاص.

فجر الخلاص .. من عل
يتنـــــزل . . .
والفـــــداء .. ملفوف
بالضيـــــــاء .
المعجـــــزات ! !
مقبـــلات .. بهيـــــات ..
فى جـــلاء . . .
كألوان الطيـــــف

(١) هالسوانيه ١٩٦٩/٧/٤ .. الملحق الادبى

على قوس قزح
محمـــــــولة . . .
بين الســـــحاب .

فى أعقاب هـذه الافتتـاحية المستبشرة التى تتحدث عن المعجـزات فى الاغلب .. ليس على سـبيل المجاز الشعرى بل على سبيل الحقيقة المقررة .. من جانب شاعر متدين ينشر انتـاجه فى صحيفة الحزب الدينى القومى يأتى التعبير عن القلق تجاه الواقع .

بين المعجزة .. واختهــــــا
ظـــــلال .. تمر
ظـــــلال ..
بأنات الثكالى .. مشــــبعة
تحمــــل فى حنــــاياها
الجراح ..
أشبــــالنـــــا .. زهرات جيلنــــا
مع كل صــــباح .. عبر القنــــاة
يتســـاقطون .. يذوون
كأعواد زرع أخضر
من جــــذورهم .. يقلعون .

هكذا فى الفقرة الثـانية يأتينـا التعبير المبـاشر عن الباعث الدقيق على المعاناة أنه تساقط الشبـاب على حافة القنـاة وهـذا ما يمثل فى نظر الشـاعر موجة جديدة من الظلال التى طالمـا تخللت على مر التـاريخ دائرة المعجزات .

بعد هـذا يتجه الشـاعر بنوع من الشكاية الى ربه الذى يتوقع منه الخلاص .. مستصرخا اياه أن يضع نهاية لمجرى الدماء السـائلة على يوم الامل التـاريخى الطويل .

رباه !
من نوافذك .. تشـــــــــهد
آلام الخلاص . . .
كثيفة .. مكثفــــــــــة
ونحن ..
بين مرور معجزة وأختهــــــــــا
نحصى موتانا .. وقلوبنـــــــا
تســــــــأل . . .
الى متى ؟ .. الى متى ؟
يظـل يومنـــــــا المـأمول
على دمانا
يســـــــــير ؟ ..

***

بهذه الشكاية مدعية الايمان .. مستلهمة الصـبر والسلوان لتساقط الضحايا المسالمة الوديعة على ضفة القناة ! ينهى الشاعر قصيدته مناجيا ربه أن يضع حدا لمخاض الخلاص فيرسل معجزة طير أبابيل تشل المقاومة العربية بحجارة من سجيل حتى تكتمل معجزة الخلاص ويعيش الاسرائيليون المعذبون الابرياء فى اطار من المعجزات البهيات فى أرض تمتد من النيـل الى الفرات ! !

الفصل الثانى

نظرات.. ومواقف

- صلاة على جرحى الحرب :
يصحق شاليف
- الضوء الذى فوق البحر :
بنحاس بلدمان
- الحرب المقبلة :
يعقوف باسار
- أشعار آحتضار :
يهودا عميحاى

صلاة على جرحى الحرب

يصحق شاليف (١)

في هـذا النموذج الشعرى نلتقى بتصوير موضـعى لاحدى زوايا القلق والاسى التى يخلفها استمرار الحرب فى الواقع الاسرائيلى . من هذه القصيدة تطالعنا صورة تستثير حقـد الاسـوياء من النـاس على من يصنعون الحرب ويثيرون العـدوان . فهى تقـدم صـورا من عذاب الشبـاب الاسرائيلى العائد من الجيش مقعـدا أو مشلولا أو مبتورا أو جثـة سـاكنة لا حراك فيها . واذا كانت القصيـدة تحمل شحنة أسى عميق ينفعل به الشاعر دون محاولة منه لاستكمال وتعميق رؤيتـه الشعرية برسم مخرج واقعى يجنب مجتمعـه هـذه الويلات ويشير بصـورة واضحة الى الطرف المسئول عنها .. فان غيره من الشعراء الذين سنلتقى ببعضهم يفعل هذا فى شجاعة تثير التأييد والاعجاب .

والى أن نلتقى ببعض هؤلاء الشـعراء الذين يطلقون

(١) من ديوانه .. شباب عائد من الجيش .. يوليو ١٩٧٠

صيحة الحقيقة بنبرات عالية .. فليس لشحنة الاسى التى تولدها قصيدة يصحق شاليف أن تثير لدينا أى نوع من التعاطف ــ فى غير حدود رد الفعل الانسانى الذى لا نملك حبسه فى نفوسنا ــ تجاه أدوات الحرب الاسرائيلية المعطبة .. ذلك انه اذا كان من طرف يجب أن يتعاطف مع اسي الانسان الاسرائيلى لتساقط ضحاياه فى الحرب فانما ينبغى ان يكون هذا الطرف ساسة اسرائيل وصناع الحرب فيها .. أولئك الذين يرفضون كل فرص السلام ويصرون على منطق العدوان.

واذا كان ساسة اسرائيل لا يتجاوبون بالتعاطف مع موجة الاسى العام التى تغمر مجتمعهم لخسائره البشرية فليس لنا نحن بالاولى أن نتجاوب مع هذا الاسى .

ان رد فعلنا على هذا الاسى لا بد وان يتصاعد بمزيد من الطاقة العسكرية والضغط العسكرى حتى نجبر ساسة اسرائيل فى لحظة على الانصات المستجيب لأنات الجرحى من شبابهم الذين يسقطون على أرضنا من موقف العدوان .

فى مطلع القصيدة يستخدم الشاعر اسلوب الدعاء والمناجاة فى تصويره لاوضاع الاصابات المختلفة التى يعود بها الشباب الاسرائيلى من الحرب .

يقول :

رب المصابين الساكنين فى الجبس . . .
رب المصابين من يتنفسون الاوكسجين . .
رب النفوس التى تلفظ انفاسها . .
كجمرة خابية . .
ساعية الى نهايتها . . .

فى الفقرة الثانية يضيف الشاعر الى هذا التصنيف

العام لاصابات الشبــاب الاسرائيلى العائد من الجيش لمسات أخرى مكملة ..

رب النفوس التى فوق أسرتهـــا ..
أكيـاس الدم أرجوانيـــة اللون ..
معلقـــــــة ..

والتى قطرت الدم الســـــائلة فى الانابيب ..
بالنســبة لهـا .. كســـاعة تضـبط ..
حيـــــــاة الزمن ..

بعد ذلك التصوير لحالة الجنود الاسرائيليين ضحايا الحرب يتجه الشاعر الى الـكشف عن مضمون نجواه للرب :

جل يا رب النفوس التى تعيش
ما بين عقـاقير التهـدئة وعقـاقير التنويم
ما لا يقــدر على تجليتـــه للأرواح
ســــــواك ..

هكذا تتحدد الغاية من المنـاجاة لدى الشاعر فهو يدعو الرب لان يكشف عما يعتبره الشاعر غامضـا غير مفهوم لا يقدر على فهم مدلوله ومغزاه سوى الرب .. فما الذى يريد الشاعر من الرب أن يجلى غموضه ؟..

جل سر هــذا العـذاب وهـــذه المعـاناة
جل الغـاية من أعمـــــالك :
الغـــاية من المشـلول والمبتور
الغـــاية من ســاق معلقـــة بمسمار
فى عظمهـــــــا .
جل يا رب .. جل .. أفصــــــح .

هكذا يكشف الشـاعر عن مكنون دعائه الذى يغمرنى شخصيـا باحســاس من الدهشـة .. هو يريد من

الرب أن يكشف عن سر هـذا العذاب وهـذه الجراح التى يعانيها ابطال الحرب الاسرائيليين .

والحق ان احســاس الدهشة لهذا الدعاء يكاد ان يوقف القلم بالتعليق عند هـذا الحد لانتقل الى الفقرة التالية . ولـكن للقـارىء على حق . من حقه أن يعرف مبعث هـذا الاحسـاس بالدهشة الممزوجة بالسخرية تجاه دعاء يبدو مسـتكينا متأسيـا يفترض أن يثير احساس الاشفاق الانسانى العام .

***

مبعث الدهشة عنـدى هو هـذه النظرة المفرقة فى الغيبية التى يطرحها الشاعر . انه يبدو ـ لو عاملناه بحسن الظن ـ غارقا فى تفكير غيبى يرد واقع المعـاناة الاسرائيلية الى قوى لا دخل لها بهذا الواقع . وفوق ذلك يبدو مترديا فى غيبوبة كاملة عن واقعه ومسبباته.
اما كان الاحـرى بالشـاعر ومن ينهجون نهجه فى التعبير وهو يعيش فى اسرائيل ويعلم ان ساســته يرفضون فرص السلام الواحدة تلو الاخرى ان يوجه دعاءه ونجواه اليهم .

ان الشاعر ينسب معاناة جرحاه الى الرب ويطالب الرب بالـكشف عن الغاية من أعماله هـذه . فهل الرب

هو الذى يثير الحرب ؟.. وهل الرب هو الذى يصر على عدم التخلى عن الاراضى العربيـة .. وهل الرب هو الذى يتحالف مع القوى الاستعمارية لاخمـاد أنفـاس العرب واخضاعهم للتشرد والعبودية .

ما دخل الرب فى هـذا ؟ !

وسؤالى موجه الى الشاعر نفسه ـ والى كل من يكتبون بطريقته فى اسرائيل ـ وأعلم ان هـذا التعليق

سينقل اليه والى غيره فى اسرائيل .

أولى بك أيها الشاعر مرهف الاحساس أن تفهم الحقيقة التى يفهمها غيرك من مواطنيك ، شعراء وغير شعراء .. وأن تفيق من سباتك .. اعلم أيها الشاعر أن سر عذاب جرحاك كامن فى اطماع ساستك واصرارهم على العدوان الجشع فوجه اليهم دعاءك سخطا وثوره لانهم لن يستجيبوا بالمناجاة والدعاء .

***

والآن نعود الى القصيدة .. فى الفقرة التالية يواصل الشاعر وصف ضروب المعاناة .

عند ما يخلو جزء تحت الغطاء ..
وينقص شىء ما هناك
كأنه جذع قد اقتطع ..
ينخسف الغطاء فى ذلك المكان
لان تحته لا يوجد سوى
الهواء .
رب الاجساد الساكنة
فى أسرتها
مجمدة دونما برد
مكبلة دونما قيود
رب الشباب الذى قضى عليه
بالنضوج فوق الكراسى المتحركة .
رب الشبان الذين قضى عليهم
بالموت .
فى قبر هو حشيتهم وتحت نصب
هو ملحفهم .
قل لهم يا رب على الاقل

كلمـــــــــــة ..
اطلب لهم الغفـران .

هكذا يصل الشاعر الى ختام قصيدته مصـورا من لقوا حتفهم فتجمدوا على الاسرة بالموت .. ومن أقعدوا فى شرخ الشباب فقضى عليهم ببلوغ سن النضج فوق مقـاعد متحركة ومن ووريت أجســادهم القبور تحت لوحات الشرف المنتصبة فوقهم .

الضوء الذى فوق البحر

بنحاس بلدمان (1)

فى هـذه القصيـدة نلتقى بمرثية لضحايا السفينة الحربية ايلات التى أغرقتها زوارق الصواريخ المصرية عام ١٩٦٧ . والقصيدة تقدم نوعا من الرثاء المعتـاد وتؤكد ذكرى هؤلاء الضحايا لدى الشـاعر الذى يعبر عن ألمه ورعايته لذكرى ضحايا الحادث .

ولعله من الجدير بالذكر أن حادث اغراق المـدمرة ايلات قد حظى باهتمام أدبى خاص فلقى تسجيلا أدبيا فى عدد من الاعمال الادبيـة الشعرية والمنثورة يتراوح جرسها بين النواح والتباكى على مصير طاقم السفينة الذى غرق معها والوعيد بالانتقام والثأر لهم .

أما هـذه القصيدة فتعزف ألحان الحزن والحداد تجاوبا مع موجة الاسى التى أشاعها الحادث بعد شهر واحد أو أقل من وقوعه .

---

(1) فى ذكرى شهداء ايلات : معاريف ١٩٦٧/١١/١٠ .. الملحق الادبى .

خبـا الضــوء . . فوق البحر
حيــوات أبنــائى يا الهى .
فى الرمال القــديمة . .
حـــــديد بارد
وذكرى الدم الســائل
فوق البحـــــر .
وتســــأل فتــــاتى :
ربما كانت هـــــــذه الظلمة
كسوفه شمس وقد جاء فى غير موعده . .
كلا ! . .
كلا يا فتـــــــاتى
لان أمام عينى
جثث أبنــائى كالصــوارى منتصــبة
لو توانت العين لحظة
عن رؤية ورود . .
ورود وغلالة على وجهـك
الطــاهر يا فتــــــاتى . .
لاحمرت حتى دم الورد
حليـــــة مزت أبنـــــائى
يا الهى !

الحرب المقبلة

يعقوف باسار [1]

فى هــــذه القصيــدة والقصيــدة التــالية نلتقى بموقفين يمثلان زاويتين مختلفتين من التعبير عن رد الفعل الرافض لصنــاعة الحرب وســيطرة العسكريين والفكر العدوانى فى اسرائيل لدى بعض قطاعات المثقفين الاسرائيليين . هنا يقدم الشاعر يعقوف باســار وثيقة ادانة صريحة للمجتمع الاسرائيلى كله على موقف صنع الحرب وشن العدوان . وهو فى سياق تعبيره الشعرى يطلق صيحات التحذير واضحة يشير بها الى السبيل الصحيح الذى ينبغى على أعضــاء المجتمع الاسرائيلى المريض انتهاجه اذا شاءوا اعفاء أنفسهم من قوارص الحرب وآلامها وهولها . انه عند الشاعر سبيل التخلى عن بث روح العدوان فى الاجيــال الجديدة وتنشئتهم على مسلك الحرب والاعتداء لتسوية المشاكل المعلقــة مع العرب .

(١) معاريف ١٨/١٠/١٩٦٨ ـ الملحق الادبى

يفتتح الشاعر قصيدته مقررا المسئولية الاسرائيلية الجماعية عن تخليق الحرب وغرس بذورها يقول :

الحرب المقبـــــلة ..
ننشئها .. نربيهـــــا
ما بين حجـــــرات النوم
وحجـــــرات الاولاد . . .
النعـــــاس ..
آخـذ في الاصطبـــــاغ بالســـــواد
ونحن من ملامســـــته في فزع .

هكذا يحدد الشاعر مسئولية صنع الحرب في الجانب الاسرائيلي ليس على مستوى حجرات السياسة والحرب فحسب .. بل على مستوى حجرات الحيـــاة الخاصة حيث ينبغي أن يهجع الانسان ويركن الى التفكير في الامان والتنعم بالسكون والطمأنينة .. وعلى مستوى حجرات الاولاد حيث يربون وينشئون لا على غذاء الفطرة القويمة ومحبة الآخرين بل على حليب الحرب وعصارات الفلظة والتهجم . وفي نفس الفقرة يشير الشاعر الى ما يوقع فيه هـذا الموقف أصحابه وما يؤدى بهم اليه من مشاعر القلق والتوتر وتوجس الخطر في الصحو وفي المنام فلا تعود بهم طاقة على مقاربة النوم تخوفا مما يلم بهم خلاله من هواجس ومخاوف .

ذراع الكهرباء تتحـــــرك
على محورها الملفوف بالصـــــمت
تجاه الحرب التي تخطـــــر
على احاديث المطـــــابخ .
في عتمـــــة الحجرات ..
نسمع وقع خطـــــاها

ونحن مقيمون على اغفـــــــــــــاءة
الظهـــــــــــــيرة ..

فى هــذه الفقرة يوالى الشــاعر تقريره لمسئوليــة صنع الحرب على كل المستويات .. فذراع الــكهرباء التى يفترض أنها تتحرك على محورها لتوليــد الضياء وصنــاعة النهــار فى جوف الظلمات تحرك تجاه الحرب وفى سبيلها بينما الحرب المقبلة تنضج شيئا فشيئا على أحاديث المطابخ مع الطعام ووقع خطاها لا يفارق أسماع وأذهان القوم وهم يأوون للراحة من ضنى العمــل فى قيظ الظهيرة .

وفى قاع العيـــــــــون
جمـــــــــلان فى لون الليـــــــــــل البهيم
يرشف كلاهمـــــــــــــــــا من فم الآخر
ميـــــــــــــــاه الرعب الخضراء
ذلك لأننـــــــــا نستنبت فى تأن وثقة ..
زهرات الحديــد للحرب المقبـــــــــــــلة ..
ما بين حجـــــــــــــرات النوم
وحجـــــــــــــــرات الاولاد ..

***

فى هــذه الفقرة الختامية من القصيدة يطلق الشاعر صيحة التحذير فالحصــاد من جنس الزرع . يقول الشــاعر : لاننــا نزرع الحرب ونســتنبت زهورهــا الحديدية بكل التانى والثقة فليس امامنا الا أن نجنى الفزع والخوف الدائمين وليس لعيوننــا أن تبصر فى اليقظة وفى المنام سوى مشاهد الروع والهول يستولد بعضها بعضا ويتساقى بعضها من أفواه بعض ويخصب بعضها بعضا . ان الثمار التى نحصدها من بذرنا ..

يقول الشاعر : هى ثمار كريهــة تروى بميـاه الرعب الخضراء الآسنة ولن نحصد سواها ما أقمنا على ما نحن عليه مقيمون .

***

على هــذا النحو من البصيرة الشــجاعة التى تمنح الانسان رؤية واضحة نفاذة توفر له امكانية الاحاطــة بعناصر الموقف كاملة واستبطان أعماقه الغائرة .. يرد هذا التعبير الشعرى مزودا بمنسوب جمــالى مرتفع ممثلا فى سلاسة العبارة وبراعة الصــورة وبساطتهــا وعمق ايحائها واتساع دلالاته فى آن واحد مع الابتعاد عن الالوان الفاقعة فى تلوينهــا وتميز التعبــير بخفوت النغمة الصاخبة الملاحظة فى كثير من أشعار مابعد الحرب فى اسرائيل .

ان الجماليــات ليست كماليــات تصطــنع فى الادب ولــكنها أوراق خضر يانعات على شجرة اسمها الرؤية الواقعية الشاملة كلما تأصلت واســتمدت رواءها من أعماق الموقف اخضوضرت أوراقهــا وأينعت . وهــذا ما توفر بعضه ليمقوف باسار فى هــذه القصيدة على قصرها .

أشعار احتضار

يهودا عميحاى (١)

تقدم هذه القصيدة تمثيلا لموقف رفض جاد وعنيف لواقع الحرب فى الجانب الاسرائيلى يشق له فى التعبير رافدا رومانسيا فى عمقه السحيق رغم انه ينطوى فى ظاهره على أمل عظيم براود أحلام الكثير من البشر فى الشيوع العالمى والمواطنة العالمية . أما لماذا تبدو الرؤية لدى شاعرنا رومانسية ؟ فانما هذا لانها مستولدة بفعل واقع الحرب الموضعى وحده دون أن تبدو فيها آثار لنظرة فلسفية اجتماعية تكون منطلقا ثابتا وقاعدة راسخة للتفكير فى هذا الامل وتمثل شرطا لازما واساسيا لامكانية تحقيقه .

يستهل الشاعر قصيدته مطلقا صرخة احتجاج تتمثل فى اعلانه عجزه عن الاستمرار بين الاحياء فى ظل واقعه .. يقول :

---

(١) من ديوانه .. الان فى الزلزال : نقلا عن بديعوت احرونوت ١٩٦٨/١٢/٦ . . الملحق الادبى .

ـ أ ـ

انا أحتـــــــضر .
لولدى عينـــــا ابى
ويــــدا أمى
وفــــمى .
لا ضرورة لى . . .
شـــــكرا جـــــزيلا .
بدأت الثـــــــلاجة تزوم تأهبا
لســـــفرة طـــــويلة .
كلب غريب يبـكى لفقـد شـخص آخر .
انا أحتـــــــضر .

يبـدأ الشـاعر تعبيره بصرخة يعلن فيهاالحتضـاره وغيابه عن الواقع ثم يعود ليثبتهـا مرة ثانية فى نهاية الفقرة .. وبين الصرخة الاولى والثانيـة يوسـد علة انفصاله وغيابه هـذا عن واقعه .. وهى ممثلة فىعجزه عن أحداث مايتمناه فيه من تغيير . فكل شىء علىحاله ، حتى ولده الذى كان يرجو له خصالا أخرى تميزه عن الواقع المرفوض يكتسب صـفات هـذا الواقع ويتحول الى نسخة جديدة من النسخ العديدة الموجودة فيه . فقد ورث الولد عينى جده ويدى جـدته وفم أبيه . اى ان هـذا النشء الجديد قد أصبح ينظر بمنظار الجيل القديم ويأتى أفعاله وينطق بأقواله .

وهو أمر كان الشاعر يتمنى عدم حدوثه . وبما انه قد أصبح واقعا فان الشاعر يحس بأن جـدواه قـد انعدمت فلم تعد لوجوده ضرورة وقد فشل فى تحقيق ما يتمناه .

ان ثلاجة الواقع البارد المقرور تزوم متأهبة لسفرة طويلة جديدة تحمل فيها ولده الى عالم الجمود والموات بعد أن اكتسب خصائص الواقع بينما كلب غريب يتولى واجب الحزن على هذه الضحية الجديدة للواقع بعد ما لم يعد من بين الناس من يهتم بذلك .

ولعلنا لو جاهدنا للتعرف على خصال هذا الواقع الذى يرفضه الشاعر بصورة عامة لوجدناها ـ اهتداء بمضمون الفقرات التالية من قصيدته ـ فيما تدعو اليه الشاعرة شوشانه بيلوس من تفريغ أطفال الجيل الجديد من رهافة الاحساس وما يستنكره الشاعر يعقوف باسار من واقع تنشئتهم على روح الحرب والعدوان .

ـ ب ـ

دفعت ضرائب لكذا وكذا من الخزائن .
أنا مؤمن على تماما .
لى ارتباطات تعامل مع كل الخزائن .
أى تغيير فى حياتى سيكلفهم مالا كثيرا
أى حركة من جانبى ستحل بهم الالم
موتى سينزل عليهم بالخراب .
وصوتى يمضى مع السحب .
يدى الممدودة تحولت الى ورقة : وثيقة تأمين أخرى .
اننى أرى العالم خلال زهرات سوسن مصفرة
لان شخصا نسيها .. على المنضدة
بجوار النـــــــــــافذة ..

فى هذه الفقرة يتحدث الشاعر عن موقفه السابق من مجتمعه .. فلقد كان يدفع ضريبة الانتماء لكل الخزائن .. كان يسهم فى كل المناحى ويقدم ما يستطيع

حتى أصبح لوفرة ما يعطيه وما يسهم به عزيزا غاليا على هذا الواقع .. وكأن كل اسهام يقدمه يمثل وثيقة تأمين جديدة له ترفع من قيمته وتضاعف من حاجة مجتمعه له .. لدرجة انه اذا تخلى أو تمنع أو مات نزلت بالواقع خسارة كبيرة تتمثل فى فقد طاقاته وعطائه

والآن وبعد أن أعطى الكثير بأمل معين يرجوه من عطائه اذا به يثور بعد أن أصبح يرى العالم من خلال سوسنات فقدت نصاعتها وبياضها وطهرها وحال لونها الى صفرة الذبول والموت لان الواقع طرحها جانبا وأهملها . لهذا يثور الشاعر على الواقع لانه خيب أمله فى التمسك بنضرة السوسنات ويناعتها .

— ج —

افلاس !
انى أشهر العالم كله
على انه رحم .
من هذه اللحظة . . احل نفسى
وأودعها داخله :
كيما يتبناني .
انى أشهر رئيس الولايات المتحدة
على انه أبى .
وأشهر رئيس وزراء الاتحاد السوفييتى
على انه حارس أملاكى وجامعها
وأشهر الوزارة البريطانية
على أنها أسرتى .
وأشهر ماوتسي تونج
على انه جدى

كلهم ملزمون بمساعدتى
أنا أحتضر .
اننى أشهر السماء
على انها الاله
كى يعملوا لى جميعهم معا
ما لم أصدق انهم سيعملون .

تتويجا لموقف الثورة على الواقع الذى خان الامل الطاهر الناصع يعلن الشاعر افلاسه عن العطاء لهذا الواقع المشوب بالذبول والموات .

وفوق هذا يعلن عن انسلاخه عنه والتجرد عن الانتماء اليه بحثا عن انتماء جديد يحقق له أمله فى المحبة والطهارة . انه يتطلع بعد أن خلع جلد الانتماء الضيق الذى يستولد الحرب والدمار الى انتماء أوسع وأشمل .. انتماء الى رحم يستوعب الانسانية كلها ويحتويها كالرحم حانيا .

***

وحتى هذه الفقرة كان يمكن أن تكتسب رؤية الشاعر صفة الواقعية .. لكنه بهذه الفقرة يجنح جنوحا جادا الى الرومانسية وخيالاتها المحلقة بعيدا بلا جدوى تحت وطأة حمى الرفض والانسلاخ عن واقعه فهو يجمع فى جوف الرحم العالمى الذى يتطلع اليه أطراف متناقضة تماما بعضها يمثل الخير وبعضها يمثل الشر وهو ذو مسئولية مباشرة وبينة عن ذبول سوسناته وخنقها فى واقعه وواقعنا تحالفا مع ساسته .

هنا يقع الشاعر فى خلط يبدد الايحاء الشفاف الذى كان يمكن استيحاؤه من سوسنات أمله . ولو كان الشاعر مسلحا بفكر اجتماعى واضح لاستطاع ان يقدم قصيدة رائعة تشير بصورة جلية الى الطريق الذى يوفر

له حلمـــه ويؤدى الى تحويل واقعه المحلى الذابل وكل المواضع الذابلة من العالم الى جنة متصلة من السوسنات الناصعات .

***

من خلال تناولنا للتجارب الشعرية الثمانى السابقة .. وهى كما ذكرنا قبلا .. تمثل فى تبـاينها نماذج للأنماط الشائعة من الانتاج الشعرى العبرى فى الفترة بين ١٩٦٧ و ١٩٧١ .. يمكننا ان ننتهى الى محصلة عامة فيما يتعلق بطبيعة الحركة النفسية العامة فى الواقع الاسرائيلي بعد الحرب .. مفادها خضوع هذا المجتمع لنوبة بينة من القلق تطارد احاسـيس الصلف والغرور بالنصر العسكرى .. وهى نوبة تطلـق مجراها الحرب المستمرة وما تقتضيه من تكاليف مرهقـة ومســتمرة وتغذيه بلا شك روافد القلق العام الضارب فى المجتمع الاسرائيلى بفعل ظروفه الاجتماعية والاقتصـــــادية المضطربة انعكاسا لبنيته الاجتماعية غير المتوازنة وهو امر سيزداد وضوحا أثناء الحديث عن القصة الاسرائيلية

الجزء الثانى

قصص الحرب في إسرائيل

اذا كنا قد تلمسنا فى الفصل السابق من خلال رؤى شعرية مختلفة بواعث القلق الاساسيـــــة فى المجتمع الاسرائيلى بعد الحرب .. فاننا فى هذا التناول للواقع الاسرائيلي من خلال النسيج القصصى العبرى .. وهو بطبيعته الرحبة الممتدة أكثر قدرة على استيعاب تفاصيل الحركة الواقعية والنفسية التى ينفعل بهـا الـكاتب ويتجه الى التعبير الادبي عنهـا .. انما نقصـد الى الوقوف على كنه الحركة الداخلية فى النفس الاسرائيلية الخاضعة للمخاوف المختلفة والى تحديد أبعـاد حركتها الخارجية فى اطار الجماعة فى ظل الحرب .. بما يعطى فى النهاية صورة أوضح عما يدور فى المجتمع الاسرائيلى من حركة واقعية ونفسـية جماعية وما تلقاه من مجاوبات أدبية .

فى هذا القسم سنتعرض لبعض نماذج القصة القصيرة بما يمثل انماط الانتاج الرائجة فى هذا الفن تحت تأثير واقع الحرب .

واذا كنا نقتصر فى هـذه الدراسـة على نماذج من القصة القصيرة على نحو خاص فانما ذلك لان القصـة القصيرة تقدم لنا اطارا من الامكانيات التعبيرية يتجاوز فى رحابته حدود التعبير الشعرى المحدود من ناحية ، وتوفر لنا مداخل عدة للواقع فى حيز الـكتاب عبر رؤية عدد كبير من الـكتاب من ناحية أخرى . وهو ما كان ليتعذر من خلال تقديم أعمال روائية أو مسرحية بما

تستلزمه من حيز كبير خاصة مع حرصنا على تقديم النصوص الكاملة للقارىء العربى .

***

ومما لا شك فيه ان هذا لا يغنينا عن الاطلال على هذا الواقع عبر المنافذ الادبية الاوسع ممثلة فى انتاج من المسرحيات والروايات وهو أمر نرجو أن نستطيع تقديمه للقارىء العربى فى القريب بمساعدة احد المراكز المختصة بالدراسات الاسرائيلية والتى قد تفتح شهيتها لدراسة أدب العدو هذه المحاولة .

فى دراستنا هذه سنحاول أن نوفر للقارىء العربى اكبر عدد من زوايا الرؤية للاطلال على قاع المجتمع الاسرائيلى عن طريق كتاب القصة القصيرة .

وعلى هذا سيشتمل هذا القسم على الفصول التالية :

١ ــ قصص العزلة واليأس .

٢ ــ بعد جديد فى ظاهرة العزلة واليأس .

٣ ــ القصص السياسى .

ونعتقد اننا بهذا التنويع نقدم شريحة عريضة من الانتاج الادبى فى فن القصة القصيرة على نحو كاف .

الفصل الأول

قصص العزلة واليأس

- كان يمكن شراء مدفع بهذا المال

للكاتبة روث الموجى

فى هــذه الدراســة سنجاهد قدر وسعنا أن يكون التناول قائما على الوثائق ، بمعنى اننا سندع المصــادر الاسرائيلية ما بين أديب وناقد تتحدث وتنبىء عن نفسها بنفسها قبل أن نتدخل بالايضاح أو التعليق وذلك جريا على منهج حتمى تمليه ضوابط البحث الموضوعى على من يتصدى لتناول هذا الموضوع فى الحياة الاسرائيلية كى لا يتجاوز مهمة تفسير ما يراه الى الحديث عما يتمناه .

فى أواخر عام ١٩٦٨ نشر القصاص الاسرائيلى الشاب افراهام بن يهوشع وهو من أبرز كتاب القصة العبرية القصيرة فى اسرائيل مجموعته القصصية الثانية تحت عنوان « فى مواجهة الغابة » (١) وعنوان المجموعة هو عنوان القصة الاولى فيها . وهى قصــة رجل يفتقــد الجذور التى تشده الى بيئته ويفتقر الى الصلات التى تربطه بواقع جماعته وهو يبحث عن خلاصه فى الغربة الــكاملة لــكنه لا يوفق حتى الى العزلة ، وهذا الانسان نموذج الطالب الدائم الذى يسعى دائما الى الثقــافة والمعرفة الفكرية ، وفى محاولته اعتزال الجماعة يقبل وظيفة مراقب فى احدى الغــابات المملوكة للصنــدوق القومى اليهودى ، وهو بهذا يبحث لنفسه عن طريق ويأمل فى ان يقدر على الــكشف عن ذاتيته عله يستطيع

---

(١) افراهام بن يهوشع .. فى مواجهة الغابة .. قصص . دار نشرها هاكبوتس هاموحاد ١٩٦٨ .

تجديد الوشائج التى تقطعت بينه وبين واقعه ، ان الرجل يعانى كمعظم أبطال الادب الاسرائيلى بعد الحرب على نحو خاص من الارهاق النفسى والاكتئاب والفزع والميل المستمر الى الهرب ، وهو عندما يلجأ الى الغابة فانما يحاول الارتداد الى أصول الحياة بحثا عن نقطة بداية جديدة ، ينتقل البطل من المدينة للعيش فى الغابة المهجورة حيث تصبح صلته الفعلية بالمستوطنات القريبة والبعيدة صلة واهية محصورة بالضرورات العملية .

فى تلك الحياة المنعزلة يمارس البطل تجريبه الداخلى مع نفسه .. انه لا يجد نفسه الا فى العدم والفراغ اللانهائى .

« تمر عليه أيام غريبة ، اذا قلنا ان الخريف قد أتى فنحن لم نقل شيئا بعد ، ان تساقط أوراق الشجر وكأنه يتزايد .. والشمس تضعف وسحابات أولى تدلف الى الصورة ، ريح ساكنة جديدة .. وادراكه آخذ فى التلاشى ، وبتأثير نوع من الخبال يبدأ فى التجوال دون هوادة فى الغابة ، غصن مكسور فى يده وهو يسير ليلا ونهارا يضرب الجذوع الفضة وكأنه يضع علامات على الاشجار .

فجأة يتهاوى ويضع رأسه على احدى اللافتات المعدنية اللامعة .. يرفع نظارته ويتطلع بعينيه فى رؤية مشوشة عبر قمم الاشجار الى السماء غبراء اللون ، يبدو فجأة وكأنه يبكى ، الصور تبهت فى ناظريه ، ومرة ثانية يغرق فى التفكير ، ثم يقفز ويضل فى متاهات الغابة بين الاشواك والاشجار ، فى ضباب وعيه تنزرع فكرة بأنه مدعو فى التو وبلا تأخير الى مقابلة على حافة الغابة فى الناحية الاخرى منها ، ولكنه عندما يخرج من الغابة

ويصل الى نهايتها سواء فى احدى لحظات الليل أو ضحى النهار أو لحظة من لحظات الفجر الاولى لايكتشف أمامه سوى بلقع أصفر .. واد غريب أشبه بنوع من الحلم الطويل ، يقف هناك زمنا طويلا أمام الصمت الخالى .. صمت جدب من الاشجار فيحس بأن اللقاء يجرى بل ويجرى بنجاح وإن كان لقاء بلا كلمات ، ظل غارقا ربيعا كاملا وصيفا طويلا دون ما اغفاءة حقيقية ، ما أعجب أن تصبح الأيام القديمة وكأنها وهم أو خرافة»

على هذا النحو يجرى سياق القصة فى تصوير لحظات عزلة البطل واغراقه فى الاغتراب عن ماضيه وحاضره بكل ما يحمل من لمسات الحياة حتى الممثلة فى الاشجار والنباتات ، غير ان البطل لا يهنأ بعزلته فالواقع يطارده .. ذلك ان شيخا عربيا دمر الجيش الاسرائيلى قريته يحمل حفيدته الصغيرة لاجئا بها الى الغابة مهجع المعتزل .

ويقيم الشيخ فى الغابة فترة تتأجج خلالها نار الثأر فى نفسه فينفث حقده باشعال النار فى أشجارها فى نهاية القصة ، وهنا لا يجد البطل « مفرا من العودة الى المدينة والى أمواتها » ان انفصاله عن الواقع يصبح كاملا ورغم انه عاد الى مدينته « فانه قد اصبح غريبا غريبا فى مدينته المألوفة له تماما » .

ويبدو أن مدينته قد نسيته هى الاخرى ذلك انه « يلتقى بجيل جديد فى الطرقات على حين يلتقى به معارفه الساخرون فيربتون على كتفه فى سخرية ووجوههم تنقبض فى ابتسامات قبيحة قائلين : «سمعنا ان غابتك قد احترقت .. وكما هو معروف ما زال البطل شابا ولكن أصدقاءه الحقيقيين قد يئسوا منه تماما » .

فى قصــة أخرى بعنوان « صمت شــاعر متزايد » تتزايد عزلة شاعر توقف عن الكتابة ساعيا الى الانفصال التام عن بيئته ، وهو يعانى الاختناق ونقص الهواء ، وتحت وطأة اليأس والعزلة يطلق اعترافات تكشف عن فقده الايمان بواقعه :

« الم اكن اريد أن اكتب ؟ الم تكن بى أشواق للكتابة؟ ولــكن عن أى شىء تمكن الــكتابة الآن ؟ وهل يمكن ان يقال شىء بعد ؟

اننى أقول لــكم : كل شىء خــدعة ، حتى شجره صفصافنا تتفتت ، جذعها يتساقط قشورا قشورا ، الصخور تنبت العستر » .

والطبيعة المحيطة تشارك البطل محنته وركوده وعجزه عن الاستمرار .

« ان هذا الوادى يتحول بفعل الامطار الغزيرة الى بركة من الاسفلت والرمل والمياه ، تل أبيب فى فصــل الامطار بلا صرف للمياه وبلا مخرج .. تزرع بها البحيرات والبحر من بعيد معتم » .

وفى سياق القصة تتأكد غربة الشاعر وتتزايد حتى يصل الى حافة النهاية فاذا بحبل النجاة يلقى اليه من مصدر لا يتوقعه .. مصدر يستحيل ان يأتى على يديه الخلاص ، ذلك ان ابن الشاعر المتخلف عقليا غير القادر على فهم أى شىء يتحول الى وسيلة تعيد وصل الشاعر بالــكتابة وبالناس فى نهاية القصة عندما يكتب قصيدة وينشرها منسوبة الى أبيه .

ولعــل الــكاتب يقصــد بهذا المخرج الوهمى الذى يهيئه لبطله الشاعر الى القول بأن الخــلاص من العزلة واليأس شىء وهمى بنفس القــدر الذى يتوقع به من

صبى متخلف العقل ان يكتب قصيـدة وينسبها عامدا الى أبيه ليعيده الى الحياة المنتجة .

وفى سائر قصص المجموعة التى تكرس للتعبير عن ازمة العنصر المثقف ذى الحساسية فى الواقع الاسرائيلى .. نلتقى بأبطال من النوع نفسه ، أفراد ساقطين فى اليأس ينتهى مصيرهم كما التقينـا بهم أو يكتب لهم الانتفاض من يأسهم بحركة حاقدة على المجتمع فيدمرون ما يحيط بهم .

ورغم ان قصص بن يهوشع لا تحتوى فى نسيجها على اشارات مباشرة الى معطيـات الحرب وتأثيرها على تحركات أبطاله واقعيا ونفسيا فانه من العسير أن نتجاهل — كما فعل النقاد الاسرائيليون الذين تعرضوا بالنقد لقصص المجموعة بل والمؤلف نفسه فى أحاديثه مع النقاد حول المجموعة — انعكاس واقع الحرب المرئى فى غالبية الكتابات الادبية بعد ١٩٦٧ على الشخصيات الواقعية التى يستقى منها افراهام بن يهوشع معالم أبطـاله فى العمل الادبى ، وفى السطور المقبـلة نحاول أن نتعرف على جانب من النقد الذى لقيته المجموعة لنشرك الناقد الاسرائيلى مع الاديب فى تقديم صورة الظاهرة .

يقول الناقد الاسرائيلى ى • عاموس فى مقالته النقدية على مجموعة بن يهوشع بعدد جريدة هاتسوفيه الصادر فى ١٩٦٨/٧/١٢ « تستوحى قصص افراهام بن يهوشع من عالم العزلة والصمت الذى يطبق على أبطاله .. ان الهرب من الواقع من ناحية والغوص الى داخل النفس والتقوقع المستمر فيها من ناحية اخرى يمثلان القطبين اللذين تتحرك بينهما شخصيات الكاتب ، ان الانفصال عن الواقع يميز نشاط الشخصيات وهو الذى يحولها

الى ما يسمى بلغة عصرنا « أضداد الابطـــال » أولئك الذين يكتسبون خصائصهم قسرا ورغم ارادتهم في البداية وطواعية وبالرضا في النهاية ، انهم ضـالون كالاجانب والغرباء في طرق الحياة وهم مدفوعون للفشل والضياع نصيبهم ومصيرهم ، ان سقوطهم ليس بمثابة فعل يقع مرة واحدة بل هو مجرى مستمر ومتدفق وسـائر يضعهم موضع الغرق البطيء المستمر . ان ألوان هذا الغرق العديدة تكون مضمون القصص وهي التي تميـز كتابة افراهام بن يهوشع وتضـعه في الموضـع المتميز الخاص من أدبنا الحديث » .

وما نلاحظه على هذا التحليل العام لابطال بن يهوشع هو وقوفه عند حدود التشخيص العام لواقع الابطال دون ما محاولة لبسط عوامل القهر والقسر الخارجية التي تفرض عليهم التقـوقع وتؤدي بشخصيـاتهم الى التوافق الخانع مع العزلة والفرار السلبي من الواقع .

ان جـدارة هذه العوامل بأن توضع موضع البحث والاستقصاء لتفوق عندنا أي اهتمام آخر .

واذا كان الناقد الاسرائيلي قد تغاضى عن هذه المهمة فلسنا نحن في حل منها ما دامت غايتنا من مثل هـذا النوع من الدراسة الوقوف على العلل الاساسية التي تؤدي الى خلق مثل هـذه الظواهر والانماط البشرية السلبية في المجتمع الاسرائيلي .

والحق ان ما يقدمه الاديب ذاته من تحليل لمسـيرة التجربة الانسانية لدى أبطاله في سقوطهم في وهـدة العزلة والصمت حيال الواقع لاينبغي أن يمثل عندنا كل الحقيقة فيما يتعلق بمكونات التجربة الذاتيـة والعامة لدى الابطال .. خاصة اذا كنا نقصد من تحليلنا للعمل

الادبى الى استخلاص النوازع الاجتماعية العـامة لدى الشخصيات الادبية عامة بوصفها صورة مقاربة الى حد ما لشخصيات الواقع المتحرك .

ان الاديب لايستطيع على الاغلب الاحاطة بكل دوافع سلوك الشخصيات الحية التى يصوغ منها شخصيات عمله الادبى ، ولذا فهو يختار أهم هذه الدوافع حسب رؤيته الخاصة ثم يركز عليها ويعمل على تكثيفها حتى تتحول بين يديه وايدينا فى نهاية العمل الادبى الى الدوافع الغالبة المميزة لحركة الشخصيات . ولذا فان اعتمادنا تحليل الاديب الواحد لظاهرة اجتماعية معينة مثل ظاهرة العزلة واليأس فى المجتمع الاسرائيلى لايمكن أن يؤدى بنا فى الواقع الى احاطة شاملة بكل العناصر الواقعية والنفسية المكونة للظاهرة وذلك لان الاديب كما قلنـا يختار على الاغلب زاوية أو بعض الزوايا التى تشـد اهتمامه فيجعلها مدخلا رئيسيا الظاهرة .

من اجل ذلك لابد لنا فى بحث مثل هـذه الظـاهرة الاجتماعية فى اسرائيل من الوقوف على مداخل عدة لها عبر انتاج أكثر من أديب حتى تتوافر أمامنا فى النهاية كل الدوافع المكونة للظاهرة . لهذا كان لابد ان نضيف الى رؤية بن يهوشع رؤى أخرى تسـاندها فى تقديم عناصر الظاهرة التى غفل عنها افراهام بن يهوشع ، وعلى اى حال فان علينا أن نفرغ منه أولا كى نتحول الى غيره .

يركز بن يهوشع فى قصصه على الحركة الداخلية لدى أبطاله .. ونحن نلتقى بهم ابتداء فى كل قصص المجموعة وقد وقعوا بالفعل فى دائرة العزلة واليأس .. ولذا فان الحركة النفسية فى كل قصة تنحصر فى اطـار تجربة العزلة انصياعا لها أو تلمسا لحبل نجاة يلقى الى وهدتها

من الخارج أو انفجارا نفسيا وعصبيا مدمرا للواقع المباشر المحيط بالبطل ، لهذا لا تمنحنا هذه القصص فرصة لاستكشاف أبعاد الحركة الخارجية بين الابطال ومجتمعهم حتى نستطيع رصد مسيرة السقوط هذه ومتابعة نموها وتطورها .. وان كانت تكشف لنا عن وجود الظاهرة .

من هنا نجد الناقد الاسرائيلى يقف فى تناوله النقدى للشخصيات عند حد استخراج صفاتها من العمل الادبى وتجميعها بصورة تقريرية تعكس انطباعا بشيوع هذا النمط من الشخصيات وبديهية توافرها بحيث لا يلزم تحليل لعوامل سقوطها .

يقول الناقد ى . عاموس :

« ان مقدرة القصاص تتوافر لبن يهوشع من خلال المواءمة الكبيرة بين الشكل والضمون .. ذلك ان هناك انسجاما خاصا قائما فى كل قصة من القصص وهو انسجام يتغذى من الجو الاساسى الذى يحيط بالاشخاص وتجاربهم الداخلية ، وفى هذا الجو تتشارك عناصر عديدة : الاسلوب المكون من أبنية مختلفة واللغة الآتية من طبقات عديدة والاوصاف الخارجية التى تجىء أحيانا حادة وعنيفة وأحيانا ناعمة ورقيقة والعوالم الداخلية التى تتلامس حينا مع ما هو قائم خارج حدودها ولا تلامسه حينا آخر .

فى هذا الجو يقطع الابطال الصلات مع بيئتهم ويخلقون بدلا من ذلك صلات مع أنفسهم ، وهم بذلك يريدون حماية انفسهم من البيئة والقيام بأعمال بطولة قدر ما يستطيعون غير انهم فى حقيقة الامر يغوصون اكثر واكثر داخل احساس من الجبن والذعر .. احساس

متزايد يبتلع كل طـاقتهم وقدرتهم ، وهكذا يدمرون انفسهم بدرجة اكبر نتيجه للمحن والضوائق التى تعذب نفوسهم بلا مخرج وبلا ثقة فى أنفسهم أو فى الآخرين .

ان الاختناق والعجز عن التنفس يميز معاداة الواقع لدى الشخصيات ، ذلك ان الانسان يمكنه ان يوجد فى غابة أو فى أنحاء افريقيا أو فى القدس أو فى تل أبيب وأن يعانى مع ذلك من نقص فى الهواء ، ان الانفصال عن الناس والتنكر للواقع المحسوس واعتزال الجماعة أمور تؤدى فى نهايتها الى ميتة اختناق سريعة أو بطيئة ، أن بن يهوشع يقدم الرجفات والارتعاشـــات وهو بذلك يحسب على الادباء المحدثين الخاضعين ليأس الانســان ومخاوفه فى هذا الجيل والذين يكرسون كل كتاباتهـم الادبية لهذه الخاصة الموحدة لجيلنا » .

هكذا ينتهى الناقد الاسرائيلى ـ وقد تركنا له فسحة للادلاء بكل ما عنده ـ بعد استخلاص الصفات العامة لابطال افراهام بن يهوشع .. وهى صفات تتاخم دائرة العصاب « أو الداء النفسى » ان لم تقع داخلها .. الى التسليم بأن خاصة اليأس والخضوع للمخاوف والعزلة خاصة عامة توحد بين أبناء الجيل .

ومن المؤكد ان الناقد يعنى بكلمة « جيلنا » الجيل البشرى كله لا الجيل الاسرائيلى وحده ، وهنا قصدنا ، هنا لا بد من وقفة نتولى فيها المهمة التى أهملها الناقد الاسرائيلى .. مهمة البحث عن العوامل المـكونة لهذه الخاصة الموحدة للجيل على حد قوله .

من المقرر ان فلسفات العدمية والعبثيـة والسخط والعزلة والعود الى الطبيعـة والفرار من الواقع وما جاوبها من حركات أدبية .. ترتبط فى تطورها بتطور

المجتمع الراسمالى وتسبقه فى نشـأتها الى الارتبـاط بالمجتمع الاقطاعى ، ذلك ان أحاسـيس الاغتراب وما يتلوها من ميل للعزلة ومعاداة الواقع ترتبط ارتبـاطا وثيقا بتفسخ العلاقات الاجتماعية وعدم توازنهـا بما يفرض اليأس على الطبقـات الـكادحة ومن يجاوبهـا بوعيه من المثقفين مجاوبة وجدانية سلبية ، وحتى اليوم ما زالت مصادر فكر العزلة والاغتراب والتحلل الشخصى بما ينتهى اليه من تكوين حركات جماعية مثـل الهيبز وغيرهم .. مركزة فى العالم الرأسمالى بما يضـغط به على الطبقات الـكادحة من أعباء الحياة المرهقة داخل المجتمع لحسـاب الطبقـات المالـكة الحاكمة وتكاليف الحروب الباهظة بشريا خارجه ، لصالح نفس الطبقات المالـكة فيما تشنه من حروب استعمارية خارج أراضيها طلبا لمزيد من الاستغلال والثراء ، ولذا فان هـــذه الفلسفات لا تجد لها تجاوبا على شـكل الظـاهرة فى المجتمعات التى وصلت الى صيغة اجتماعية فى التطبيق تتيح للانسان سعيا متأنيا مطمئنـا نحو البنـاء دون خلخلات نفسية واسعة .. فهى لا تضغط على الانسان فى حياته اليومية فى الداخل ولا تستخدمه أداة حـرب رخيصة فى الخارج ، وحسبنا أن نعلم ان ظواهر الامراض النفسية والاجتمـاعية تكاد لا ترى فى دول العـالم الاشتراكى بل وان ظاهرة مثل ظاهرة انحراف الاحداث قد اختفت بصورة مطلقة فى المجتمع السوفييتى بينما هى وسائر الظواهر الاجتماعية المرضية فى تفاقم وتضخم فى مجتمع كالمجتمـع الامريكى رغم كل مظـاهر ثرائه وقوته .. حسبنا أن نعلم هذا لندرك ما لطبيعة العلاقات الاجتماعيـة فى مجتمـع ما من أثر على خلق الظواهر

المرضية النفسية الاجتماعية ـ التى تبـــدأ بالاكتئاب والعزلة واليأس وتنتهى بالخلل العصبى والجنون ـ أو على اندثارها وتلاشيها .

وهنا نخرج بالدلالة الاجتماعية الاساسية من تسليم الناقد الاسرائيلى بشيوع الشخصـية المعتزلة وتعبيرها عن انسان الجيل .. هنا يتجه المؤشر الى التوحيد بين دخيلة المجتمـــع الاسرائيلى ودخيلة المجتمعـــات التى أنبتت وطورت فلسفـات الفـردية والاغتراب والعزلة واليأس .

ان طبيعة البناء الاجتماعى ـ وهى الامر الذى تتوقف عليه بالدرجة الاولى درجـة الصـحة السيكلوجيـــة الجماهيرية عامة ـ فى اسرائيل ليست فى حاجة الى أى نوع من الاسهاب للـكشف عن تفسخها وعدم توازنها .

فالمجتمع الاسرائيلى فى الاساس مجتمع طبـقى فيه غالبية كادحة تعيســـة وأقلية مالـــكة حاكمة من وراء الـكواليس تحرك كل شىء فى اسرائيـــل اليوم بعد أن أقامتها من قبل بالتحالف مع الامبرياليـــة العالميـــة عن طريق استغلال النوازع القومية لدى الجماهير اليهودية التى أصبحت فى اتساعها الغالب اليوم فى اسرائيل مجرد أداة استثمارية فى أيدى الراسمالية اليهودية العالميـــة حليفة الامبريالية العـالمية . والمجتـــمع الاسرائيلى فوق ذلك ـ ولا ندخل فيه هنا الاقلية العربية المسحوقة ـ مجتمع تمييز عنصرى طبقى بين اليهودى الاوربى أداة الاستثمار الواعية بدورها كأداة استثمار امبريالى واسع على الارض العربية تحت شعار من القوميـــة اليهودية ومن ثم تحصل على عائد أكبر من الغنـــائم والاســـلاب العربية وبين اليهودى الشرقى أداة الاستثمار المضـــللة

المخدوعة التى يبقون على تخلفها لتظل قانعة بما يلقى اليها من فئات الفنيمة (حتى عام ١٩٦٠ كانت نسبة اليهود الشرقيين ٦٥ ٪ من مجموع السكان البالغ ١٠٩١١ر١٠٠٠)

ان التطابق بين بنية المجتمع الاسرائيلى ودخيلته الاجتماعية وبين المجتمعات الرأسمالية الطاحنة للانسان والمستغلة اياه .. أمر تنفق أجهزة الاعلام الصهيونية اموالا طائلة سنويا لتغطيته واسدال الاقنعة عليه بالحديث المكثف عن صيغة الحياة الاشتراكية فى ذلك المجتمع وعن مؤسساته الاشتراكية كالكبوتس (١) وغيره مما يستخدم فى الحقيقة كأدوات ذات ثوب تقدمى لاحراز أهداف أبعد فى التغرير بالانسان وتسخيره لصالح المولين الكبار .

ولكن ها هى الحقيقة تدعونا اليها من مدخل مختلف تماما عما يتوقعه أصحاب الدعاية الاسرائيلية .. مدخل الفرد الإسرائيلى المعتزل اليأس المتفسخ الدال بحاله على واقعه الاجتماعى .

ومن الطبيعى عندنا أن ترتفع أصوات النقد ضد هذه النتيجة من قبل اقطاب الدعاية فى اسرائيل .. فى نفس الوقت الذى ستسلم فيه العناصر الواعية المتطلعة للمصلحة الحقيقية للشعب اليهودى بها ، ومن الطبيعى ان يكون مدخل الدعاة فى نقض هذه النتيجة هو مهاجمة منهج الاستدلال عليها ، سيقولون ــ وهذا منطقى ــ كيف يمكن الخروج بتعميم اجتماعى لنمط ساقط من

(١) هناك رأسماليون فى اسرائيل .. بل وهناك مليونيرات حتى فى الكبوتسات . . وهناك من اعضاء الكيبوتس من يشكون من هذا الوضع » من حديث لاسحق بن آهرون سكرتير عام الهستدروت .. معاريف ١٩٧٢/٣/٧

الشخصيات الادبية استنادا الى أديب واحد وتسليم ناقد بنتائجه ، واحترازا من هذا عمدنا فى البـداية ـ رغم الاثر المؤيد الذى تمنحه لهذه النتيجة النصـوص الشعرية السابقة لدى شعراء مختلفين ـ الى التـأكيد على قصدنا الى تجميع عناصر الظـاهرة من أكثر من مصدر ، وهو ما سيظهر فى هـذه الدراسة والقصص التالية لها فى نفس الفصل . عنـد بن يهوشع وفى عام ١٩٦٨ التقينا بشخصيات معزولة فى رؤيته بفعل واقعها الخاص ، وعند الاديب الاسرائيلى هرتسل آرليخ وفى عام ١٩٦٩ نلتقى فى مجموعته «مراقبة عبر الشارع» (١) بشخصيات واقعة فى نفس حالة الركود والعزلة واليأس بما يوحد بينها وبين شخصيات بن يهوشع ولـكن مع تحليل أكثر شمولا ، تحليل يرد ظاهرة اليأس والعزلة لدى الشخصيات الى عوامل فى الواقع ، فهل نخطىء اذا تصورنا ان مصدر الشخصيات الادبية لدى كل من الاديبين والادباء التاليين واحد فى الواقع الاجتماعى مع اختلاف النظرة التحليلية لدى كل منهما .

فى القصـة الاولى من مجموعة هرتسل آرليخ يدور الحديث حول شيخ يحاول الاحتفاظ بزوجته الشابة ، ويروى الحدث على لسان « الانا القاص » الذى يتابع مجريات الاحداث ويرويها كجزء من تجربة يراقبها من شرفته عبر الشارع ، والحدث فى القصـة لا يستخدم الا كاطار يفرغ فيه « الانا القاص » رؤيته للواقع الراكد المشحون بالسأم ، ففى سياق القصـة نلتقى بالفقرة التالية ترد على لسان « الانا القاص » .

---

(١) هرتسل ارليخ .. مراقبة عبر الشارع .. قصص .. اصدار رابطة الادباء فى اسرائيل الـابعة لدار نشر مساداه .

« تقول أمي انه لو أغلقت المقاهي ودور السينما فسينفصل بالطلاق نصف الازواج الشبان في المدينة لشدة الملالة والسأم ، ان الناس يسيرون في الشوارع كمن يعرف ان هناك ما ينتظره في المكان الذي هو متجه اليه ، وحقيقة الامر انهم يغذون السير لانه ليس هناك مايدعوهم الى التمهل .. ربما باستثناء بعض النساء اللائي تتصارع عيونهن الطافحة بالشهوة مع بطاقات الاسعار في واجهات المحال عندما تتغير فصول السنة أو موضة الملابس ، ويمكن الوقوف على مدى السآمة في مدينتنا عندما تحدث مشاجرة أو يشب حريق أو يقع حادث في الطريق أو عندما يركض مجنون في الشارع .. ذلك ان نصف سكان المدينة يتجمعون ، ويحتفل شهود الرؤية منهم بانتصارهم بأطباق شفاههم وابتسامة العارف ترتسم على وجوههم .. بينما يتجمع حولهم من فاتهم حضور المهرجان على أمل التقاط اشارة عما حدث كي يحملوا معهم الى البيت تجربة اليوم » .

***

بعد هذا الوصف الذي يقدم خلفية عامة لروح الحياة في المدينة الاسرائيلية يتجه « الانا القاص » الى تناول ظاهرة الشباب اليائس المعزول في هذه الارضية الطافحة بالسأم وهو ما يهمنا عنده .. ذلك ان مصير الشبان الذين سرحوا على التو من الجيش يبدو متهرئا متفسخا تماما كمصير أقرانهم الذين ينتظرون الالتحاق بالجيش.

« من العسير اليوم الاعتماد على الشبان .. انهم ممعنون في التهافت والتعطل ، والعلة كامنة في الموقف الدفاعي .. ذلك ان معظمهم اما موجود في أتون الحرب أو انه قد عاد من الحرب أو انه ينتظر حربا ثانية ،

ولذا فهم يعشقون الاستدفاء تحت الشمس وكل منهم يتحسس أعضاء جسده مرددا فى نشوة : « ها انا حي وموجود » ، منهم من يتغلب على هذه الحالة فى زمن وجيز ، ومنهم من يستغرق للوصول الى هـذا زمنا مديدا ولمنهم من يحتفل بحقيقة بقائه بين الاحياء بعدم التغلب كلية على هذه الحالة . من السهل مشاهدتهم وهم يتجولون بلا غاية فى عديد من منـاطق التجمع المشبوهة ، ان هذا أيضا هو عين السبب الذى يحمل كثيراً من الفتيـات الصـغيرات على الزواج من رجال مسنين ... انهن ينشدن الامان « ص ١٠ »

***

بهذا التحليل لظاهرة ركود الشخصيات الاسرائيلية لدى هرتسل آرليخ نضيف مدخلا جديداً لفهم نفس الظاهرة عند بن يهوشع وبالتقريب بين الشخصيـات الادبية والشخصيات الاجتماعية يمكننا ان نضع أيدينا على طبيعة الحركة فى الواقع الاسرائيلى .

ان آرليخ يرد العلة الى الحرب التى لا تتوقف فلا تدع للشباب الاسرائيلى ـ ليس جميعه بالطبع ـ من طموح سوى البقاء سليما على قيـد الحيـاة محتفـلا بسلامته وذلك بالاسترخاء تحت الشمس ، وبعضهم يتغلب على هذه الحالة من الركود فى زمن قصير وبعضهم يستغرق زمنا مديدا وآخرون يستسلمون لها نهائيا ، وما غفل عنه هرتسل آرليخ هنا اهتم به وبابرازه بن يهوشع من قبل وهو ذلك النمط من الشبـاب المثقف الذى يستيقظ وعيه على سلبية واقعه فيأنف من الاتصال بالجماعة ويسقط فى وهدة العزلة واليأس .

اما ما غفل عنه الاثنان فنذكره نحن هنا .. وهو

ذلك العدد من الشباب الاسرائيلى الذى يستيقظ وعيه على قصــور البنيــة الاجتمــاعية فى واقعه وتفسخها وارتباطها بفلسفات اجتماعية وسياسية ساقطة تنعكس على حياته المطحونة فى الداخل وعلى استخدامه وقودا لحرب استعمارية ضد العرب فى الخارج .. فيتجه الى طريق الاسوياء بالثورة على مظـاهر السلب فى واقعه وتكوين الجماعات السياسية المنادية بالتغيير فى الداخل وتبديل النظرة الى العرب فى الخارج مثل جمـــاعات اليسار الجديد، وجماعة الفهود الســوداء المدافعة عن طبقة اليهود الشرقيين المسحوقة وجماعات السلام فى اسرائيل .. وان كانت جميعها ما تزال فى بداية الطريق نحو الوصول الى نظرية ثورية حقيقية تغير من وجــه الحياة الاجتماعية والسياسية الاسرائيلية ، وفيما نعلم فان هذه الفئة من الشباب الاسرائيلى هى أقل الجماعات هناك واخفتها صوتا على الصعيد العام .

كان يمكن شراء مدفع بهذا المـال

روت الموجى (١)

روما مرتبطة بالمشقة ..

مرتبطة بملامسة سـطح منضـدة البلوط الخشبى المقشور القديم ، بنفض الغبار عن الحاجيات القديمة فى الحجرات ذات الدلف الخشبية المقفولة ، بحقول تكسوها صفرة كركمية ، بطنين النحل الثقبل المضنى .

روما مرتبطة بهـذه المشقة ، بانكسـار النفس ، بالحرارة لـكنه لا تنبغى الشكاية ، فهناك حيث يقيم صديقى ميخائيل الحرارة أشد وأقسى .

روما مرتبطة بالاشواق ، وعندما أسافر الى روما أقابل فيلينى ، قابلته الآخر مرة منذ ثلاث سنوات ، كان ذلك فى شـهر ايلول وكان النحل يطن فى حقـول الصيف فتذكرت خلايا النحل التى يملـكها أبى ، عندما كنت أصرف الشيك فى البنك كان هناك رجل حسن المنظر يدخن البيبة وينظر الى فى ابتسامة رقيقة ، تعقبنى عند خروجى ، كان من المستحيل عليه أن يحدس اننى أقيم فى روما فى مقهى مع فيلينى مكدودة لدرجة الموت .

(١) ها آرتس ١٩٦٩/٦/٦ .. الملحق الادبى .

الطلب على أحلامى حاليا أقل مما كان عليه دائما ، ان المستهلكين القليلين يعملون هم أيضا فى انتاج نفس البضاعة .

روما مرتبطة بهذا .

كنت مرهقة فى ذلك الصيف ونفسى نهب لاحلام مفزعة تتأجج وتخبو دون انقطاع .. تخنقنى فى صمت بلا دراامية كاللجة التى ترتفع بالبحر عندما تمسه يد ريح ضالة دوارة ، وهكذا سافرت الى روما وهناك فى مقهى اقترب منى الرجل القصير الاصلع ذو عينى الساحر وسألنى عما اذا كنت فى حاجة الى مساعدة . عرفت انه فيلينى الذى يسحر بالصور المتحركة ، نحن الآن فى شهر سيفان والصيف مقبل ، لكن نفسى ضائعة فى رؤى التيه والنوم مجافينى وأنا فى روما .

الحاجيات باردة خرساء وما لدى منها هرم فى معظمه . هى دائما مسترخية ونبيلة فى سكون أنفاسها ، كنت أود أن أكون احدى الحاجيات ساكنة كالماء .

منذ حوالى ثلاث سنوات كتبت قصتى الاولى عن راحيل شطران .. عن لقائها الاول بفيلينى فى مقهى بروما وعن القصص التى تتخيلها لنفسها ..

أحلام لا تنتهى على الاطلاق ..

والآن وحيث انه لا طلب هنا على الاحلام التى أنتجها فأننى احمل ميخائيل معى وأنا مسافرة الى روما ، اننى لا أحب هذه المدينة فهى غير جديرة بالحب .. لكن فزع الصيف المرهق يعيدنى الى الرخام الابيض الفخم الاصم .. الى الحدائق المصففة بدقة لا تدع فسحة للانطلاق .. الى مياه الفسقيات السحرية .

قد يفضل ميخائيل التنزه فى شارع فينيتو فى الطريق

المتوهج بالاضواء ، ستحبه النساء ، انهن ينجذبن دائما الى رجال الجيش ، ان ميخائيل ضابط برتبة رائد ، فى المكان الذى يتواجد فيه فان الاحلام تكون من نوع آخر ، لكننى أفضل أن أتجول معه فى شارع آفياه العتيق بين أشجار الصنوبر المثقلة بمئات السنين والتى لا يوجد الا القليل من مثلها فى اسرائيل . منذ ثلاث سنوات كنت أقرب الى نفسى وكتبت قصة عن راحيل شطران ، أما اليوم فأنا غاية فى البعد لدرجة انه يمكننى أن أتكلم فى ضمير المتكلم وأنا أحكي بلا خشية كل القصص التى لا نهاية لها على الاطلاق ، القصص التى لا تصل أبدا الى هدفها .

انني أريد أن آخذ ميخائيل الى روما لبضعة ايام فى سبيل الراحة .

***

روما مرتبطة بالاشواق ، بالصياح .

لكننى لا أعتقد ان ميخائيل سيتوسلنى ، انه لايحتاجنى ، بينما أنا كالنبتة الطفيلية فى حاجة الى عصارة أشجار الصنوبر الندية فى الشتاء ، كى أصبح سما أو حلوى نادرة الوجود ، اننى فى حاجة الى نباتات خضراء مثلى فى هذا مثل حشيشة الدينار التى تلف سيقانها على غيرها من النباتات لانها تفتقر الى الاوراق الخضراء والكلوروفيل .. انها تستمد غذاءها ممن يستضيفها ، انها تجرده من عصارته وتأتى على قوته ، انيأحكى لنفسيانني سألتقى به الى جوار قبر ادريانوس واننا سنذهب فى الليل حيث نقضى سهرة ممتعة ونلتقى بفيلينى ذى عينى الساحر والنجوم العديدة ، اننى لست مطلوبة هنا ، او ليس الطلب على الاحلام التى

انتجها معدوما ، هناك سأستطيع التمثيل فى الافلام ، كذلك يستطيع ميخائيل أن يلعب دورا ، ان الجياد وأحزمة المسدسات ستناسب ميخائيل .. الرائد .

اننى وميخائيل لم نلتق قط ، اننا نتحدث أحيانا فى التليفون عندما يلقينى الارهاق على أجهزة الاتصال فى عصرنا ، فى حديثنا الاخير قال لى : « تعالى الى » لكننى رفضت فسألنى : لماذا اذن اصر على الحفاظ على صلتى به ؟ كان فى مقدورى أن أجيبه غير ان صاحبة المقهى طلبت منى انهاء المكالمة ، كان فى استطاعتى أن احكى له الى أى حد اشبه الرافلسياه الكبيرة التى تضرب جذورها فى جسم غريب حتى يتفتح برعم زهرتها فيه ولا تنفلت خارجا الا فى أوان أزهارها حيث تتفتح، ان قطر زهرتها يصل أحيانا الى متر ، لون تاجها أحمر مطعم ببقع صفراء تجذب الرائحة الاسنة المتصاعدة منها ذباب القاذورات فيحط دائما على جذعها .

***

كان فى مقدورى أيضا أن أقول له ان الصلة الجسدية هى غالبا العدو رقم واحد لاى علاقة لانها تؤدى بنا فى الواقع الى تحويل الحب ، كنت أود لو قلت له اننى اعرض عليه صداقتى وان التعرى ممكن ايضا عبر التليفون ، واننى بطريقة غير ملموسة تماما قريبة اليه لاننى أعيش حياتى أنا أيضا على حدود الصراخ واننى قد عشت وقتا ما على اعتقاد انه لا يمكن الاتصال بالآخرين الا من خلال الجسد ، لكننى لا أعلم ما اذا كان سيفهم ، ربما كان مثل هذا الفهم خطيرا عليه .

ان الفزع يقودنى الى روما ، كذلك الاشواق .

لقد زرت اماكن عديدة خلال السنوات الثلاث الماضية

كذلك زرت جبل فيلون باليونان ، انه يشبه شارع الاحباش فى القدس فى طبع جماله وفى الهدوء الوحشى الذى يخفى وحشيته ، قابلت اناسا كثيرين فى السنوات الثلاث الماضية ، لكننى لم أقابل فيلينى ولا ميخائيل، ولم أحضر الى روما وذلك لاننى لا أحبها ، لكننى الآن مكدودة واستمع الى الموسيقى أكثر وفى كل مرة اعود الى روما .. الى فيلينى .. أحمل ميخائيل عند سفرى

فى احدى المرات كانت لدى حديقة الى جوار البيت، كنت أكثر من العناية بها لاننى أحب الزهور ، فى أحد الايام رأيت زهرة الايزداريخت وهى تزهر واعتقدت انه لا مثيل لها فى جمالها ولمعانها وطيب رائحتها ، انها تزهر فى الربيع لفترة قصيرة ، وغرست فى حديقتى واحدة ورحت أنتظر ، عندما كبرت قليلا وبات هناك أمل فى أن تزهر فى الربيع التالى بدأ صاحب البيت يشكو ، كان يخشى أن تفسد جذورها أرضية البيت ، فى احدى الليالى تسلل الى حديقتى واقتلعها .

فى الحقيقة ينبغى فى مثل جونا حيث المياه قليلة أن يكون الانسان عمليا ، لا مهلة للانسان كى يفرغ لجمال البدر الذى يبزغ فى منتصف الشهر ، ألن يهبط عليه قريبا رجال ويجرون دراسات مختلفة عن نوع البحوث التاريخية والاثرية التى يجرونها فى روما أيضا ، اننى أحلم بالبدر لكنه لم يعد هناك فى الحقيقة طلب على الاحلام ، فى الجو القاسى لا تتوافر مهلة للانسان ، ومع كل هذا فاننى أحمل ميخائيل معى فى خروجى ننتقل أحيانا من مقهى لآخر نشرب الدرامبوى وهو ويسكى مخلوط بالعسل .

ان مذاق العسل يعيدنى الى حقول الصيف فانسى

فيليني للحظة ، ان له نصيبا كبيرا فى احلامى فى الفترة الاخيرة ، أقصد ميخائيل ، اننى أشعر انه من غير المناسب ما أفعله عندما اتخيل نفسى رافلسياه كبيرة أو عش الغراب ، انها أشياء مطلوبة فى البلاد الفنية ، فهناك مكان للكماليات اما هنا فقليلون من يعرفون مذاقها ، الانسان هنا لا يمهل ، لا بد من الاصغاء للأخبار ، ان ميخائيل يريد أن احضر اليه ، انه لا يقدر اننا نعيش فى روما معا ، انه يريدنى ان احضر ، لكنه ممتنع عن الاتصال ، وعندما يكون راقدا فى الفراش مع امرأة فانه يحادث الاخرى فى التليفون وعندما ينهى المحادثة فانه يدير القرص على رقم آخر .

اننى ما كنت اصمد فى تجربة كهذه ، علنى كنت اموت ، ان الارهاق يدعونى للهرب ، لقد بدأت أظفارى تتشقق كأظفار جدتى ، لقد كنت أسأل نفسى دائما : لماذا تنزف اظفار جدتى ؟ لم اكن اعلم ان الاظافر كالشجر الذى يقاس عمره بما يضاف اليه من شروخ ، اننى لن أستطيع ان أمثل فى فيلم مع فيلينى اننى لست شابة بما فيه الكفاية ، ربما استطاع ميخائيل أن يحصل على دور فهو رجل بارد ، اننى لا أعتقد انه يعرف التقبيل ، انه الآن وفى كل مرة يعود فيها يروح يبحث عن شيء آخر ، شيء مختلف لايرتبط به ، شيء يبدد الخطر فجأة مثلما فى لحظة التراخى التى تحل بالجسد بعد المزاوجة .

اننى مضطرة لأخذه معى فى خروجى ، انه سيحب روما ، الا تتظاهر هى الاخرى بأنها باردة رخامية وشابة وكأنها قد نسيت فجورها القديم وفداحة ماجرته من نكبات وقسوتها الكريهة ، هناك فى فندق غريب

هرم متداع مسترخ وحر قد يتعلم أن يدرك ما هو الحب .

***

روما مرتبطة بالارهاق ..

روما مرتبطة بالاشواق ..

اننا نتحدث فى التليفون وهو يقول لى ان احضرى ، وعندما أقول له اننى واثقة من اننى لن أصل فانه يتحدانى فانه لا يقين الا من شىء واحد ، انه فى كل محادثاته تقريبا يذكرنى بأن أى شىء غير يقينى فيما عدا ذلك الموضوع المعين والمحدد الذى لايعقبه شىء .

واننى أسائل نفسى أية أحلام يحلم ميخائيل ، لقد حكى لى صبى انه حلم كيف وضع سريره فى حقل على العشب وكيف كانت هناك شجرة واحدة فروعها خيوط واغصانها تشتعل .

قد أحكى هذا لميخائيل يوما ما .

لست أثق فى انه سيصغى .

فى القصة الاخيرة التى قصصتها عن نفسى كنت انستسياه دون أى صلة بالاميرة الروسية ، كنت امرأة تريد أن تخفي ذاتيتها وتأمل فى أن تبعث من جديد ، فى هذه القصة أيضا وصلت الى فيلينى وجردت عينا الساحر عنده روحي من سترها ، لـكننى فى هذه المرة لم أصل وحدى ، لقد جئت فى صحبة رائد أجرى معه لقاءات تليفونية منذ بضع سنوات .

ان التخفى وراء أسماء مستعارة شىء مريح ، لـكنه من المستحيل تقريبا أن أحكى عن آخرين ، حتى عن ميخائيل يصعب على أن أحكى ، اننى فقط أجرى تغييرات ومع كل هذا فان هناك دائما شريكا فى هـذه القصص

اخترعه لنفسى ، اى غريب لا أعرف عنه شيئا .. اى غريب كميخائيل يصعب الاتصال به .. يستحيل المجىء اليه .. يبقى نادرا فى البيت ، اننى أستمع الى مقطوعات موزار ، موسيقى مشحونة بالنكبات مثل حياتى ، موسيقى مرهقة .

من وقت قريب وزعوا عندنا منحا مالية على الادباء ، الم يكن يمكن شراء مدفع بهذا المال ، يكفينا الخبز .. ان عش الغراب من الكماليات تماما مثل الحب .

لقد بدأت أفكر بطريقة ميخائيل ، بعد قليل سأحب روما ، بعد قليل سيصبح تسكعها البارد جزءا من نفسى ولحمى ، ان الرافلسياه الكبيرة تستطيع أن تعيش بلا حيرة فى غابتها الخضراء الندية على الدوام .

لقد بدأت أعتقد اننى ربما أجىء الى ميخائيل ، انه ربما لن أموت خرساء وغريبة عن نفسى فى فراشى .. انه قد لا يكون الجسد فى الحقيقة عدوا لاى ارتباط حقيقى .. انه لا مهلة لمسايرة الاحلام عن حب الارواح كما هو الحال بالنسبة لسائر الارواح .

روما مرتبطة بالارهاق
روما مرتبطة بالاشواق
روما مرتبطة باستصراخ النفس الى بعيد
روما مرتبطة بانكسار النفس

أو لست لا أحب الا جبل فيلون فى اليونان وشارع الاحباش فى القدس لكننى لا أصل الى هناك .

فى القصة المقبلة سأسمى نفسى انستسياه دون ما ارتباط بالاميرة الروسية سأحكى عن امل امراة فى أن نبعث من جديد .. فى روما .. مع فيلينى وستكون القصة بلا نهاية كذلك ، مثل الحرب.. مثل محادثاتى التليفونية مع ميخائيل .

تعليق . .

تقدم قصة « كان يمكن شراء مدفع » شكلا جديدا من التعبير عن رفض الواقع الاسرائيلى الملغم بنوازع الحرب والمنغمس فى بوتقة صناعتها الكريهة .

والكاتبة تكشف فى قصتها عن نوع من التمزق حاد بين احساس الانتماء الى هذا الواقع والارتباط به وبين احساس الانكار لما يشوبه من غلظة وقسوة .

ان تجربة الكاتبة مركزة اساسا ـ فى اطار التعبير عن هذا التمزق ـ فى دائرة التعبير عن غربة الآدمى المشحون بالمحتوى الانسانى والمزود بالقيم الانسانية المرهفة فى واقع منصرف الى النزعات المادية العملية المطلقة التى تفرغ الانسان من محتواه الطبيعى التواق الى التسامى وتفرض عليه أحد اختيارين : أما التوافق مع واقع يخالف طبيعته بدافع الارهاق وفقدان القدرة على المقاومة ازاءه واما السقوط فى وهدة الاغتراب والعزلة الشخصية المدمرة .

والكاتبة تقصد فى تعبيرها الفنى هذا الى استخدام معادل موضوعي لواقعها .. معادل كان يحمل فى ماضيه خصائص وصفات واقعها الراهن ، هذا المعادل هو روما التى سيحبها ميخائيل الضابط رمز البرود الانسانى والشهوة المادية الطافحة والتجرد عن كل الحساسيات البشرية فى الواقع الراهن للتطابق القائم بين ماضيها « روما » وحاضره .. « الا تتظاهر هى

الاخرى « روما » بأنها باردة رخامية وشابة وكأنها قد نسيت فجورها القديم وفداحة ما جرته من نكبات وقسوتها الكريهة » .

ان الكاتبة فى استخدامها لهذا المعادل الذى تعلق عليه صفات واقعها الحاضر انما تقدم تعبيرا شاملا عن رفض منطق القسوة والعدوان فى حاضرها الاسرائيلى وفى ماضى روما الرومانية المتجبرة المتغطرسة التى أصبحت تتظاهر بالبرود والشباب بعد أن هجرت ماضيها الكريه ، أو بعد أن فقدت سطوتها . ومع ذلك فان روما التى توحى بالقسوة ولا تخلو مصاحبتها من الارهاق والقيظ والكراهية المستوحاة من ماضيها .. تبدو محتملة اليوم عن الواقع الذى يمثله ميخائيل والذى ما زال طافحا بالقيظ والحرارة .

« روما مرتبطة بهذه المشقة .. بانكسار النفس .. بالحرارة لكنه لا تنبغى الشكاية ، فهناك حيث يقيم صديقى ميخائيل الحرارة أشد وأقسى » .

وفى سياق التعبير العام فى القصة تضمن الكاتبة صفات الواقع المنبوذ من جانبها ، فهو واقع مجرد من الحساسية الانسانية.. الطلب فيه على الاحلام الوردية غاية فى الضآلة ومن ينتجون هذه الاحلام فى الطمأنينة والسلام على قلتهم هم وحدهم من يستهلكونها فالواقع منصرف الى أشياء أخرى مخالفة .

« الطلب على أحلامى حاليا أقل مما كان عليه دائما . ان المستهلكين القليلين يعملون هم ايضا فى انتاج نفس البضاعة » .

وهو واقع لا مكان فيه ولا مهلة لاحساس بالجمال فهو يقتلع الورود لانها قد تفسد الارضيات . انه واقع

متبلد الاحساس يكرس نفسه خارجيا وجوانيا لضرورات الحرب فحسب .

« فى الحقيقة ينبغى فى مثل جونا حيث المياه قليلة أن يكون الانسان عمليا ، لا مهلة للانسان كى يفرغ لجمال البدر الذى يبزغ فى منتصف الشهر » .

والكاتبة تطلق صيحة الانفصال والرفض لخصائص هذا الواقع .. انها تشعر بالاغتراب المتزايد عنه وبالطفيلية فيه لعدم تجاوبها معه ، ان غربتها عما حولها تمتد الى احساسها بنفسها التى كانت تمثل جزءا متسقا من هذا الواقع .. حتى انها قد باتت بفعل انفصالها عنه وعن موقفها القديم المتسق معه قادرة الآن على تعريته وكشف آفاته دون ما احساس بالخشية من المكاشفة كما كان يحدث من قبل وهى على درجة من الاتساق مع حقائقه ومكوناته مما كان يملى عليها احساس الحرص عليه والتغطية على سوءاته .

« منذ ثلاث سنوات كنت أقرب الى نفسى ، وكتبت قصة عن راحيل شطران ، أما اليوم فأنا غاية فى البعد لدرجة انه يمكننى أن أتكلم فى ضمير المتكلم وأنا أحكى بلا خشية كل القصص التى لا نهاية لها على الاطلاق ، القصص التى لا تصل أبدا الى نهايتها » .

ان الكاتبة تطلق صرخة الرفض لتيار التجرد عن القيم الانسانية بحنجرة قوية ونبرة عالية « من وقت قريب وزعوا عندنا منحا مالية على الادباء ألم يكن يمكن شراء مدفع بهذا المال ؟ يكفينا الخبز .. ان عش الغراب من الكماليات تماما مثل الحب » .

هكذا تنطلق الصرخة هازئة بذلك الاهتمام الذى يبدو زائفا استثنائيا غريبا فى نظرها بقيمة انسانية كالادب ..

ومشيرة فى صيغة السؤال الانكارى الساخر « ألم يكن شراء مدفع بهذا المال » الى المنطق الكريه السائد فى مجتمعها .. منطق الاهتمام بالمدفع عنوان الدمار وتقديمه على سائر الاحتياجات الانسانية ، تقول الكاتبة مستنكرة ومدينة واقعها .. ابقوا على اموالكم للمدافع فلا حاجة لنا بالقيم الانسانية لانها عندكم كمالية تماما مثل الحب المفقود الذى لا يجد له فسحة ولا مهلة فى نفوسكم وفى اطار واقعكم .

الصمت ...

شمعون بار (١)

لزم الصمت ثلاثة أشهر ، كان فى مقدوره أن يصمت أكثر .. غير ان البعض حكى له عن عمانوئيل وبذا فقد الصمت مدلوله الوحيد وهو الهرب .

بقدر ما اتسعت رقعة البلاد وتجاوزت حدود الخرائط بقدر ما قلت الاماكن التى كان يمكنه الهرب اليهـا ، ثلاثة أشهر ملأ فيها كل الآخرين كل الاوراق بكتابات مزدحمة محتشدة وأغرقوا فيهـا أنفسهم والآخرين ، لزم الصمت ، كان يجيب واحساس الخجل يغمره : « ليس لدى ما أقول » كان لدى وربما سيكون ولـكن ليس لدى الآن ما أقول » .

بعد ذلك حكوا له انهم قد وجدوا عمانوئيل .

ما عاد يمكن أن يكون هناك شىء غريب أو غير عادى، أصبح الخيال واقعيا تماما لان البعض قد اهتم بالبحث عن عمانوئيل بعد ما لم تعد هناك كلمة تقال .

ولقد ظن انه لن يستطيع بعد أن يكتب شيئا .

والآن بينما فرش الرسم الخاصة بعمانوئيل .. هذه الفرش التى لم يرها قط .. مثلها فى ذلك مثل أشـياء كثيرة يعلم عن وجودها دون أن تكون لديه براهين على

(١) معاريف ١٩٦٧/١١/١٠ .. الملحق الادبى .

ذلك، الآن اصبحت لوحات النسيج التى اقامها مبسوطة فى فراغ ابيض ، يقولون عنه انه كان يحب الحياه ولكن شخصا بأعلى « بعيدا تماما » قرر أن حب الحياة لا يكفى لترتيب حقوق فيها .

***

كان الصمت اسهل الطـــرق مثل الهرب مثل فرش الرسم الخاصة بعمانوئيل مثل أسئلة بلومه ..

وجدوه ممتزجا ومختلطا بجزئيات احدى الدبابات ، كان من المستحيل معرفة أين تبدأ جثته وأين تنتهى جثة الدبابة ، لم يبق على أصله الاول سوى الاشـــلاء وقطع الصلب المغطاة بالتراب ، أما سائر الاشياء فكانت منتمية الى المـــاضى كالدودة المتحجرة ، أما الحاضر فقد كان الذباب ، ذباب الجبل فى بداية الوجبة الفظيعة .

قالوا انه لم تكن له فتاة ومع ذلك فقد كان شابا لان الشباب بالنسبة له كان صلة تكاد تكون جنســية مع فرش الرسم والانسجة .. ولقد عرفت الالوان شبـابه أكثر من كل الفتيات .. ربمـــا كانت هى الفتيـــات . بقى اربعة أيام فى الجنوب بعد ان صدر اليه أمر يقول « المدرعة .. تتحرك » غير ان دبابته لم تتحرك .

كان يبدو انه سيسجل لنفسه حربا اخرى يمكر فيها على من حدد العناوين على ظهور القذائف ، كانت ماتزال هناك بعض الاعشاب الزائدة على أطراف الخريطة فى حاجة الى الاقتلاع والتشذيب .. وبعد ان اتم الجميع تصفية المناطق التى حددت لهم بقيت له هو زاوية منعوه من العودة منها ، ولم تبق لبلومة سوى الاسئلة ، مثل صمت الآخرين .

جلس أمامها وراح يشرح لها فى حديث كأنه يجرى

بين بالغ وصبيـة انه لا صـدف فى العالم ، ان العلم لا يعتـرف بالاعاجيب وليس صـدفة أن الشـبان هم وحـدهم الذين لا يعودون من الحروب ، ان معـادله حسـابيه بسيطة تقول ان من يذهبون هم فقط الذين لا يعودون .

***

وبعد ذلك عندما تتوقف الاسئلة وتصـبح السـاعة متأخرة « ويتواجب الاستيقاظ لممارسـة حيـاة اليوم الجديد » يمكنه عندئذ أن يبقي داخل الصمت لان هذا الاحساس بالذنب يتمكن من قلبه ومن لوحات النسيج الخالية « انني لم أطلق النار عليه .. ولـكنني عدت » .. « كان ينبغى العثور على الطريق بينما كانت سـائر الدبابات تنتظر فى منعطف الطريق ، كان كل منعطف صخرة وكل طريق فخا ، كان المحرك يدور بأقصى طاقته والجنـازير تحفر الصخور .. وفى الوسـط بينهما كان الغبار يغطى زجاج منظاريهما .

منعطف آخر ، وفى الناحية الاخرى من حقـل من الصخور ولدت امامهما فجأة ساق الموقع ، وبعد ذلك انتظرا حتى انضمت اليهما القافلة .. القافلة بأكملها ، من خلال المزاغل الضيقة لم يكن يبـدو أن هناك شيئا يضاف الى نوبة العمل .

رسميا انتهت الحرب ، قال واحد ساخرا فى الداخل كل من يسقط الآن يسقط بصورة غير رسمية .

ومرة ثانية انغرزت الجنازير ورفض الموقع أن يقترب كانت الجنازير وكأنها تدور حول نفسها جاهدة فى ابتلاع الاحجار وارتقاء الصخرة التى كانت تصب عليهم النيران على هذه الحال يبـدو الصلب عنـدما يتولاه الفزع ،

وعندئذ أصيب الجنزير وتمزق فتعرت العجلات وغرزت في الرمال ، وأغلق الطريق ، وحاول البعض من الخلف ان يدفعهم الى جانب الطريق لاخلائه كي يمر الآخرون، لـكي تصف اصابة قذيفة لنقطـة التلاقي الواقعة بين جسد الدبابة والبرج فانه يلزمك كثير من الحبر وعديد من الاوراق واكثر من هذا بكثير من دخان السجائر ، وحتى توضح وتبين هـذه الاصابة التي تحيل الصلب الحي الذي يتنفس الى قطعة صماء من الحديد الخردة فانك ستحتاج الى الرسم ، ولقد كان الرسام بالداخل.

ربما كان هذا هو سبب صمته .

تعليق

تطرح هذه القصة بعدا مكملا يسهم فى الكشف عن أبعاد ظاهرة العزلة واليأس لدى الانسان الاسرائيلى، فهى تتعرض لازمة المحارب الاسرائيلى الذى يعود سالما من الحرب منتصرا وقد أضاف الى الخريطة الاسرائيلية حدودا جديدة . فهو يعود لا ليتهلل ويحتفل بانتصاره ، بل يعود ليلتزم الصمت ويقع فى احساس من العزلة والكآبة ، يقع فى هذا الاحساس لان النصر العسكرى مهما بدا ممكنا ومطواعا للجانب الاسرائيلى فى ظروف معينة من غفلتنا وضعفنا الا انه يفرض ضريبة من أنفس المحاربين الاسرائيليين ، ضريبة يمكن أن تكون أفدح لو استجمعنا أنفسنا .

ان تجربة الكآبة والحزن العميق التى يعايشها المحارب الاسرائيلى المنتصر والتى ستزداد وضوحا فى الفصول التالية.. هى نتيجة لشىء واحد اسمه صلابة المقاومة وفعاليتها فى فرض الضريبة المرتفعة على العدو حتى فى معارك انتصاره .

فهذا هو الطريق الاساسى الذى يمكننا به أن نحيل ظاهرة العزلة والكآبة واليأس الجزئية اليوم فىاسرائيل الى ظاهرة شاملة ماحقة لنفس كل محارب فيها .

الفصل الثانى

بعد جديد في ظاهرة العزلة واليأس

● الحالمة :

بنيناه عاميت

● العلمين :

يعقوف . شافيط

فى الفصل السابق خلصنا من بحثنا فيما قدمنا من نصوص أدبية الى دلالات يمكن أن تكون عامة تشير الى طبيعة البنية الاجتماعية المتفسخة داخل المجتمع الاسرائيلي والى الانعكاسات السلبية التى تلقيها سياسة السلطة الاسرائيلية البرجوازية فى حروبها ضد العرب على قطاعات من الشباب الاسرائيلي الذى يشعر انه يساق الى ميادين القتال وقودا لهذه الحروب التى تحركها وتدفعها عجلة الاوهام العنصرية والاطماع الاستعمارية .. فيسقط فى دائرة العبثية والضياع .

وفى هذا الفصل نتجه الى استكشاف جانب آخر من آثار الحرب التوسعية وما تلقاه من مقاومة عربية على نفسية الانسان الواعى داخل المجتمع الاسرائيلى ، وقبل أن نمضى فى المحاولة لا بد من التأكيد على العامل الحاسم فى خلق هذه الآثار والانعكاسات لدى الانسان الاسرائيلى .

ذلك ان رد الفعل العربى المقاوم على أرض الساحة العسكرية ــ وان كان محدودا وفى أضيق الحدود الواجبة ــ هو المرد الاساسى لهذه الانعكاسات وليس وعى الانسان الاسرائيلى بعدوانية الحرب التى يشنها ساسته ، وذلك لانه لو لم تلق اطماع السلطة الاسرائيلية جوابا عنيفا قاسيا من جانب العرب .. لاسترخت كل الاعصاب فى اسرائيل ولانفثأ وعى الواعين بعدوانية السلطة الاسرائيلية ولتفتت الجماعات المنادية بالسلام

مع العرب ولتحول الشباب الساقط فى وهاد اليأس والفزع من أهوال الحرب الى ادوات استثمار نشيطة آمنة على ارضنا وتحت سمائنا .. اى انه لو لم يكن للمقاومة وجود لركن الكل الى قطف ثمار العدوان .. ولاختفت كثير من الظواهر الاجتماعية السلبية فى اسرائيل بفعل المكاسب الاقتصادية الهائلة التى يمكن حصادها من أراضينا المحتلة اذا سادها الهدوء وخمدت انفاس النضال فيها ، وهذا فى الواقع هو أهم الدروس المستقاة من هذا النوع الذى نجريه من الدراسة .

فى هذا الفصل نعرض لنموذجين أدبيين من القصة القصيرة يتشاركان فى الكشف عن أبعاد ظاهرة اجتماعية واحدة مترتبة على استمرار المقاومة من مدخلين مختلفين .

عند الكاتبة بنيناه عاميت وفى قصتها المنشورة بالملحق الادبى لصحيفة معاريف الصادرة فى ١٩٦٩/٧/٤ تحت عنوان « الحالة » نلتقى بكشف باطنى عن بعد جديد فى ظاهرة اليأس والعزلة فى المجتمع الاسرائيلى ، انه بعد الخوف الذى يضرب عميقا متأصلا فى باطن الانسان حتى ليصبح القاعدة الموجهة لحياته .

تفتتح الكاتبة قصتها على النحو التالى :

« اسكن فى بيتى ، زوجة لزوجى ، أذهب لعملى ، أعود ، أجد صعوبة فى أن أنام ، أحيانا ينتابنى كابوس وأنا نائمة فيصعب على الخروج فى الصباح ، ومهما حاولت أن أعمل وأن أرى وأن أفهم بقى مذاق الاحلام فى فمى .. فى عينى .. فى ملمس يدى .

حزن يخرج من أحلامى وينسكب على كل أيامى .

اننى معزولة وأفكارى مع نفسى .. زوجى ينظر فى

ويعود الى أشغاله ، عله يخشى أن أقول انني غير سعيدة بعد عامين من الزواج ، عندما يمسني حزنه أحيانا .. أطلعه على أفكاري ، ماذا تفيد كلمات الطمأنة وقلبي ملىء بالحرب والموتى .

عندما سألني .. عندما تجاسر وسألني : « هو من طبعه الجمود .. بطىء دائما .. ينظر الى فى دهشة» : لماذا لا أريد أطفالا ؟ « كذبت عليه فقلت لنعش عاما آخر لانفسنا » .

هكذا تكشف الكاتبة عن بعد الخوف فى حياة المجتمع الاسرائيلى .. خوف لا يقف عند حد عزل الانسان بذاته كوحدة حية كما لاحظنا فى الفصل السابق .. بل انه يتجاوز ذلك هنا الى ضرب حصار على لاوعية بما يرسخ فى وجدانه احساسا بعبثية اتجاهه الى توليد امتدادات بشرية له وبذا يحول بينه وبين تجديد الحياة فى ابسط صورها وهى الصورة البيولوجية .

ان الخوف الذى يسيطر على الانا القاصة فى قصة « بنيناه عاميت » يئد فى نفسها كل ميل طبيعى نحو الامومة ويشل طاقتها النفسية على الانجاب .

ولكن عن اى باعث يتولد هذا الخوف الرهيب ؟

« أقامت أمى وليمة لاخى عند ماعاد ، تزوجت أمى ثانية ، وهذا ابنها أخى ، كان رفاقه يحكون عن بطولته لجيراننا ، نكس أخى عينيه ، ما الذى يفكر فيه حقا هذا الفتى .. بماذا يحس ؟ انني لا أعرفه مطلقا ، لماذا لا تقولين شيئا ؟ سألتنى أمى : لماذا لا تشاركيننا ولو مرة فى أفراحنا ؟

انني تعبة يا أمى ، ولم لا تدركين ان قصص البطولة فى الحرب كريهة الى نفسي ؟ ما هذا الذى تتحدثين عنه

ما هذا الذى تمزجينه ؟ ما هذا الذى تضاهينه ؟ .. اليست هذه هى الحرب ، انني لا أفهم الموت وان كان هو الشيء الوحيد فى الحياة الذى يتجاوز حدود الشك .

الموت وحده مفهوم عندى اقل من اى شيء .. اعجب عندى من كل شيء .. كريه لدى اكثر من اى شيء .. يخيفني ، يهزني ، كل يوم وكل ليلة فى أحلامي التى لا تفارقني ، منفصل عن كل شيء .. يقيني فوق كل شيء .. مرئى ومنظور ومسموع .. مستشعر ومحس ومدرك .

عينا أخى منكستان بينما رفاقه يغدقون الثناء عليه .

ربما استطعنا أن نتحدث مرة عندما أدعوه الى السينما .

ولماذا لا يكون لى حفيد فى النهاية يا ابنتى ؟ قالت أمى .. ولذت أنا بالصمت » .

هكذا تقدم الكاتبة الجواب .. انها تكشف فى وضوح عن أبعاد هذا الخوف وبواعثه .. انه خوف ناشيء عن الواقع الراهن .. واقع الحرب ، ذلك ان الانا القاصة تشعر بالعزلة المطلقة تجاه أحاديث الاطراء والثناء عن أخيها فى الحرب مما يجرى على ألسنة الجماعة المحتشدة للاحتفال بعودته ، وذلك لوعيها بالجوهر الحقيقى الذى ينطوى عليه واقع بطولة أخيها ، فهو عندها ليس جوهر المجد والفخار انما جوهر الفناء والموت ، وهى تخشى من الموت ، تخشى منه على نفسها وعلى أخيها ، وفوق ذلك يمتد هذا الخوف عندها الى وليدها الذى لم يتخلق بعد فى أحشائها ، ولذا فهى تقاوم الضغط الاجتماعى من زوجها وأمها اللذين يحفزانها الى الانجاب بعد أن ترسب الخوف فى أعماقها واستحوذ على باطنها ولاوعيها .

« فى احدى الليالى منذ سنوات عديدة .. كنا أنت يا أمى وأنا وأخى الصغير وأبى داخل حفرة .. فى صراخ ورائحة شياط ووجوه مذعورة وصوتى ضائع من الفزع بينكم جميعا وسط الدمار والريش المتطاير المرتعد والنار المحيطة بنا ، وهربت الى حقل بينما شعرى يحترق وساقاى مجروحتان .. لم أنجح فى طى ماضى داخلى .. وطفولتى تصرخ من لحمى الحى .. من عينى وهما تنظران حولى فلا تريان شيئا لأن كل شيء ينهار، يداى لا تمسكان بأى شيء ، فكل شيء يحترق ، قلبى لا يتعلق بأحد ، انني مليئة بالموتى ورائحة عفنهم تفوح من كل شيء ، ولكن الليلة حلمت ثانية بنفس الحريق والزلازل ورائحة شياط ووجوه شاحبة وهزة غاية فى القوة أطاحت بى وقذفتنى من على الرمال بعيدا الى داخل انقاض وحطام ليجثم فوقى شيء ثقيل ، كانت ساقاى مشققتين ويداى متقيحتين وعيناى ملتهبتين ورائحة كريهة تفوح من شعرى .

فجأة اقتربت منى أمى وبين يديها رضيع ، أخى الحى والى جانبها أبى .

واستيقظت من النوم لشدة الانفعال، ولم يعد زوجى لثلاث ليال ، شيء غريب ، لم يطرأ على ذهنى انه سيفعل بى هذا ، لقد أتيحت له فرصة ، كان فى مقدوره أن يسحق كل موتاى ، زوجى ، بيتى ، ولدى » .

بهذا تنهى الكاتبة قصتها وقد أوردناها كاملة بترتيب فقراتها .. أن الانا القاصة كما يتضح من الفقرة الاخيرة تستشرف مستقبل وليدها فى مصير أخيها البطل ، ان المصيرين عندها مصير واحد عنوانه الدمار والفناء ، وسر معاناتها كامن فى التوحيد الذى

يتم فى باطنها بين واقع اخيها ومستقبل وليدها ، هكذا تكشف الكاتبه عن الحالة ، فالانا القاصة خاضعة لمخاوف الحرب بدرجة بالغة تترجم معها هذه المخاوف فى باطنها الى أحلام مفزعة تظلل عالمها كله بالخراب والفناء ، وفى بؤرة هذه الدائرة من المخاوف يقف خوفها على أخيها المحارب .. وطالما كان جزعها على أخيها المعرض للخطر يترجم فى لاوعيها بعمليه توحيد بينه وبين وليدها الذى لم تتهيأ له أسباب الحياة بعد .. فقد ظلت محجمة عن الاخذ بأسباب الانجاب ، ولكنها عندما تستبصر فى أحد أحلامها كنه عملية التوحيد هذه بين الاخ وبين الوليد .. عندما ترى أمها فى حلم الحرب والدمار تحمل اليها وليدا تعرف فيه أخاها الحى .. تصحو على ادراك لطبيعة المانع النفسى الذى يحول بينها وبين الاقدام على الانجاب ، وفى لحظة الكشف النفسى هذه تصبح قادرة على استقبال زوجها ليسحق بقايا الخوف من نفسها باستيلادها الوليد ، غير أن الكاتبة تقطع فى نهاية القصة بان الزوج لم يأت فى الوقت المناسب وان فرصة قد فاتته ليسحق مواتها وخوفها ، وفى هذا اشارة الى استمرار هذا الخوف وتمكنه .

ان الكاتبة تكشف فى قصتها عن بصيرة سيكلوجية قادرة على النفاذ الى أعماق الانسان الذى تستمد موضوعها من تجربته ، وهى فى قصتها التى تحتوى على شحنة انفعال بادية الصدق بالحالة التى تصورها .. تشير الى طريق الخلاص من حالة الخوف هذه ، وهو عندها طريق باطنى بين الانسان وذاته ، طريق الاستبصار الداخلى بمكونات خوفه وكوابت حركته وبالتالى تملك القدرة على كسر قيود الخوف وتجاوزه .

ان البعد الذى يكبح ميل الانسان الى أستحضار امتدادات بشرية له لا يبدو بعدا ثانويا مقصورا على نفس الاديب الحساسة وما تصدر به من تعبير أدبى .. بل انه يبدو فاشيا بين قطاعات من الجماهير الاسرائيلية ، ومما يؤكد هذا عندنا تكرار التعبير عن نفس البعد لدى اكثر من اديب من ناحية والمحاولة العامدة الى علاج اثره بطرق الاعلام الاسرائيلية المختلفة بما فى ذلك الادب الموجه من ناحية أخرى .

وفيما يلى نقدم تناولا أدبيا مختلفا للظاهرة نفسها فى قصة يوحى بناؤها بالقصد العمدى نحو توجيه الجماهير الاسرائيلية فيما يتعلق بهذه الحالة النفسية التى تمثل فى انتشارها ظاهرة اجتماعية تدخل فى باب الامراض النفسية الاجتماعية ، وهى ظاهرة لها خطرها بالنسبة لمجتمع يسعى حثيثا الى زيادة طاقته البشرية كالمجتمع الاسرائيلى .

فى قصة بعنوان « العلمين » للقصاص يعقوف شافيط نشرت بالملحق الادبى لصحيفة ها آرتس ١٨/٩/١٩٧٠ : نلتقى بكشف عن ظاهرة العزوف عن الانجاب بفعل الخوف من الحرب فى المجتمع الاسرائيلى يختلف عن الكشف الباطنى الذى قدمته كاتبة قصة « الحالمة » ، فهنا يورد الكاتب الظاهرة ليس من خلال موقف المنغمس بل من موقف المراقب من الخارج مع الاحتكام فى تقييمها الى معايير الاخلاق والضرورات الاجتماعية استهدافا الى اقناع الواقعين فى هذا النوع من الخوف الى التخلى عن مخاوفهم والاستجابة لاحتياجات الحياة الاجتماعية .

فى قصة العلمين لايصور الاديب الحالة فى اطار الواقع

الاسرائيلى الراهن بل يعمد الى تهيئة القارىء لتلقى التوجيه من مسرح زمانى متقادم بعيد .. كى لايشعره بأنه أمام محاولة متعمدة لتوجيه سلوكه والتأثير فيه . والكاتب الى ذلك يلجأ فى صياغة المضمون الذى يريد أداءه الى حيلة على قدر كبير من البراعة ، فهو يسوق المضمون الاجتماعى فى سياق حدث يروى على لسان الانا القاص ويتعلق بشخصه كى يصل بالقارىء مع آخر جملة فى القصة الى حالة من الصحوة على سلبية الظاهره أشبه ما تكون بالانفجار العاطفى المؤيد للانجاب والاحتفاظ بالاجنة فى الارحام حتى تولد وتشب فتيانا مقتدرة تشارك فى الحياة .

يفتتح الكاتب قصته على لسان الانا القاص صارفا انتباه قارئه عن محاولة التوجيه على النحو التالى :

« فى أكتوبر ١٩٤٢ أنقذت عمتى ايطه البشرية ، فى ذلك اليوم وبينما كانت أمى تسير فى شارع هرزل لمحت فى وسط الشارع خلف المدرجات العمة ايطه ؛ كانت العمة ايطه تقف مع نحماه برومفين تحت المظلة الخضراء الممتدة فوق واجهة أحد محال الاقمشة ، ومن ظاهر وجهها كان يمكن أن يفهم المرء على الفور انها منهمكة فى القاء موعظة أخلاقية تربوية » .

هكذا ينشىء الكاتب لرسالته اطارا زمنيا بعيدا ويهيىء لها الرسول الموثوق به فى شخص العمة ايطه السيدة كريمة الخلق الداعية الى السلوك القويم .

وبعد بث الثقة فى أهلية الرسول لحمل الرسالة .. يتجه الكاتب الى الكشف عن جوهر الحدث الذى يصب فيه الرسالة مع التأكيد على مسرحه البعيد فيصل السرد على النحو التالى :

« تسمرت أمي في مكانها للحظة وهي تبحث عن مخرج من الكمين ، كانت شمس الظهيرة شديدة الوطأة في ذلك النهار ، كان ذلك نهار يوم الثالث والعشرين من أكتوبر ، كان رومل يدفع بدباباته تجاه العلمين وكان الجنرال مونتجمرى يضع هو الآخر قلنسوة سوداء على رأسه وينظر فى خرائط الصحراء ، كانت الصحراء مظلله بسحابة من الغبار كبيرة تتحرك داخلها الدبابات الداكنة مثل ألوف من النمل خرجت من أوكارها لتضل فى كل اتجاه ، ألقت أمي نظرة على الساعة ، كانت عقاربها تتحرك فى الدائرة ، وانبعث الى مسامعها عويل الراديو من مكان ما ، كان من الواضح لها ان العمة ايطه ستتلكأ تحت المظلة لحظات طويلة .. فلم تكن حركة يديها قد وصلت بعد الى قمة الحماس ، كانت المشكلة كامنة فى ان العمة ايطه كانت تقف تماما أمام مدخل الممر المؤدى الى عيادة الدكتور هانس شميدت وما كان يمكن الانفلات الى الداخل دون ان تلحظ من يمر أمامها ، كان لابد أن يجذب أحد انتباهها كيما تعبر أمي الشارع قادمة من الجانب الآخر وملتصقة بالحائط لتختفى فى ظلال الممر ..

أرسلت أمي عينيها فى يأس فيما حولها غير أن أحدا من الاقارب أو المعارف لم يمر لينقذها ، بحثت عن منديل كى تجفف العرق عن جبينها وسلمت فى وهن بمزيد من الزمن ليحل المشكلة ، شعرت بقرص شديد فى بطنها وانتابها احساس بالقرف والرغبة فى التقيؤ ، تجهم وجه السيدة برومفين على الناحية الاخرى وراحت تذبذب بقدميها ، استندت أمي الى عمود قريب وجعلت تطل على المرآتين وقد ظهرتا أمامها كظلى شجرتين بعيدتين تحركهما ريح لافحة فى مكان ما على حافة صحراء

قائظة ، مرت بضع سحابات بأعلى .. كان سراب الظهيرة يحلق فوق المياه وهبت رياح باردة من البحر معتلية ظهر الجبل » .

بهذه الفقرة يحدد الكاتب موقف الام من القيم الخلقية .. ويهيىء القارىء لكى يدرك ان موقف الام فى تخوفها من العمة ايطه الرسول وتواريها منها انما ينطوى على مجافاة للأخلاق والقيم ولذا فهى تتحاشى لقاء العمة حتى لا تقف موقف السيدة برومقين التى تنال وابلا من التقريع لانحراف زوجها عن سبيل القيم .

« الآن مضت السيدة برومقين الى الامام وشعرت أمى انها تعتصر فى مكانها ، كانت تحس على شفتيها بطعم مالح وهى تحدث نفسها عما ينطوى عليه الامر من دواعى السخرية ، دارت العمة ايطه فى مكانها مترددة فيما يبدو الى أين تذهب ، جعلت تنظرها هنا وهناك وهى مادة عنقها ، فانكمشت أمى فى طيات الظل والقت نظرة على الساعة ثانية وبطنها تتوجع من الطعنات ، قامت العمة ايطه ببضع حركات فى اتجاهات مختلفة ثم بدأت ترتقى الطريق سمينة وبطيئة ، ولم تتمهل أمى ولا لحظة واحدة .. فقد اتجهت فى عجلة ناحية الممر تريد أن تستغل ميزة المفاجأة ، وعندما أصبحت تحت المظلة ولم يعد أمامها سوى بضع خطوات حتى تصل الى الممر الذى تظهر فى مقدمته لوحة الدكتور شميدت البيضاء .. استدارت العمة ايطه على عقبيها فى حركة كبيرة فاصطدمت نظرتها المحلقة بصورة أمى الشاحبة ، فتنهدت واستجمعت قواها مسرعة اليها بذراعين مفتوحتين .. سارة ! الى أين تذهبين ؟

توقفت أمى وأحست وكأن الهواء قد نفد من رئتيها

وانتصبت مستعدة للصدام ، ياله من حظ حتى أراك انك مختفية منذ شهور ، كيف حال اسرائيل ؟

بخير .. قالت أمى : شكرا انه يأتى أحيانا لبضع ساعات ثم يرحل ، مالت العمة ايطه بوجهها لتنظر الى السيدة برومقين وهى لا تزال فى أفق الشارع ، كنت منذ لحظة أتحدث مع نحماه برومقين ، هل تعرفينها ؟ لقد قلت لها ان زوجها « شرموط » (١) . هذا بالضبط ما قلته لها ، انه الآن يعمل فى السوق السوداء وسط الحرب الكبيرة فى الصحراء .

قالت أمى فى اعياء :

— نعم .

سألت العمة : الى أين أنت ذاهبة يا سارة ؟

— مررت من هنا مصادفة .

تفحصت العمة ايطه وجهها جيدا وكأنها كانت تفحص شريطا ممتلئا بالرسوم المتحركة .. ضاقت حدقتا عينيها وقالت فى دهشة : انك شاحبة للغاية .. هل أنت مريضة ؟ كلا .. قالت أمى وهى تدرك الآن انها لن تنجو من الكذب ، كل شىء على ما يرام تماما .

ما معنى على ما يرام تماما !! هل ترين كيف تبدين .. انك شاحبة كالطباشير ، تمتمت أمى .. هذا من الحرارة

— هراء .. أية حرارة ؟ اليوم حار ؟ اننا الآن فى الشتاء ، ماذا بك ؟

لا شىء .. كيف حال حاييم ؟ غير ان عملية صرف الانتباه لم تفر العمة ايطه .. صوبت رأسها تجاه الممر وانحبست أنفاس أمى ، وللحظة ساد صمت عميق .. صمت الانتظار ، وبعدها دوى صياح العمة ايطه .. هل أنت ذاهبة الى الدكتور شميدت ؟ وحركت أمى

---

(١) هكذا وردت بالنص العبرى .

راسها فى وهن علامة الايجاب .
ـ ماذا حدث ؟
ـ لا شىء .. لا شىء .
شعرت بمغص فى بطنها .. صافحت العمة .. ان دورى يحل بعد دقيقة .
ـ سأدخل معك .. قالت العمة ايطه فى حنان بالغ وهى تمسك بمرفقها :
ـ لا ضرورة لذلك فكل شىء على خير ما يرام ، سأصعد للطابق الاول .
ـ طالما اننى لن أذهب الى مكان خاص .. فلنتحدث بالداخل .
ـ كلا ! قالت أمى فى عنف ، وكشفها وقع صوتها العنيف ..

غاصت فيها العمة ايطه بعينين مستريبتين .. ثم عادت فألقت نظرة أخرى على أمى التى كانت تمسك ببطنها ، ورفعت رأسها وقرأت حروف اللافتة .

وبحركة حادة قفزت من فوق الاسفلت ودارت حول أمى تسد مدخل الممر فى وجهها » .

هكذا يتكشف الحدث .. فالام حامل ذاهبة الى الطبيب لتجهض حملها ، ويبدأ الصراع بينها وبين العمة رسول الاخلاق بكل ما يثيره هذا ابتداء من احساس التأييد لدى القارىء لموقف العمة حفاظا على الجنين .. لتمضى عجلة السرد بعد ذلك فتفصح عن دوافع الام الى هذا العمل وتدحض هذه الدوافع لدى الام فى القصة وفى نفوس الحوامل الاسرائيليات اللائى يتجهن الى افراغ أرحامهن بفعل الخوف اليوم .

« لم يكن هـذا فى الحسبان .. قالت العمة ايطه

بصوت قاس : هل جننت ؟
ــ انني مضطرة .. قالت أمي :
ــ لم يكن هـذا فى الحسبان .. قالت العمة ايطه ثانية : انني لن أسمح لك بذلك .
ثم صرخت فجأة : لن تمرى الا على جثتى ..
ــ انني أستسمحك .. قالت أمي فى وهن

كان فى الشارع عدد قليل ما بين غاد ورائح .. بينما ظهرت فى أسفل الشارع بالبحر بعض السفن الحربية ، وفى مكان ما بالصحراء الكبيرة كانت الدبابات يصيب بعضها بعضا والارض تتزلزل ، كان النـاس ينتظرون اخبار ال ب.ب.س. بفارغ صبر وكان الدخان الاسود يتصاعد من مصانع التكرير .

لم تتحرك العمة ايطه من مكانها وظلت ثابتة كالصخرة التى لايمكن زحزحتها .
ــ لا خيار لى .. قالت أمي
ــ بل لك الخيار .. قالت العمة ايطه فى صـوت صارم .. عودى الى البيت .

ــ انني مضطرة اليوم لاخذ الحقنة الثالثة ، قالت امى .. وبهذا تكون النهاية .
ــ هل أخذت حقنتين قبل ذلك ؟
أومأت أمي برأسها .. هذه الحقنة الاخيرة .
ــ قاتلة ! هذه حقيقتك .. قاتلة ! قالت العمة فى غضب » .

هكذا يصدر الكاتب حكمه الاخلاقى على موقف مثل هذه الام على لسان العمة الرسـول .. وبهـذا تكون الادانة الخلقية لها كاملة أمام القارىء والقارئة فى المرتبة الاولى.. ليدلف بعد ذلك الى تحليل دوافعها ودحضها

بالمبررات الاجتماعية الداعيــة الى الانجاب فى المجتمع الاسرائيلى .. وعلى راســها مبرر تعويض الخســارة البشرية فى الحرب بمواليد جدد .

ـ لا خيار لى ، قالت أمى فى اعياء .. كانت شفتاها مشبعتين بطعم مالح وكان عليهما راسب من ملح حادق، لا ينبغى لى ، تمتمت أمى .

ـ ماذا تعنــين بأنه لا ينبغى لك .. لوحت العمــة ايطه بيديها فى بطء .. ما هذا الذى لا ينبغى لك ؟ ! ان ما لاينبغى لك هو دخولك الى هذا القاتل لتأخذى الحقنة ، هــذا هو ما لاينبغى لك ، انتظرى أنت فى الخارج وسأدخل انا اليه ، انتظرى ، ايعطى مثل هذه الحقن فى وقت الحــرب ؟ ! بينمــا الرجــال يموتون كالذباب ! !

ـ هذا هو لب الامر تماما ، قالت أمى : لا ينبغى الآن احضار أولاد الى العالم .

تنفست العمة ايطه ونفخت فى تثاقل ، مدت يديها فرتبت شــعرها المتهدل . كانت العمة تفيض بالعزم والتصميم ، غير ان أمى الاصفر منها كانت عازمة هى الاخرى.. فخطت خطوة تجاه مدخل المر غير ان العمة أمسكت بها .

ـ ماذا تفعلين ؟

ـ ذاهبة الى الدكتور شميدت ، قالت أمى .

ـ انك لن تذهبى .. صححت لها العمة ايطه ماقالت كان صوتها جادا ومفعما بالثقة .

ـ ان لى دورا ، قالت أمى .. لا ينبغى ان اتأخــر .

ـ اسمعى ! قالت العمة ايطه فى عناد وهى تغلى . اذا دخلت اليه فاننى سأثير فضيحة فى كل المدينة ولن

تستطيعين أن تطـــل بوجهك خارجا بعد ذلك ، انك تعلمين انني استطيع ذلك .

وتراجعت أمي قليلا فى تصلبها .. وقالت :

ـ لا تكوني عنيدة يا ايطه .. انك تعلمين مثلى تماما انه لا ينبغى احضار اولاد للعالم فى مثل هذا الزمن .

ـ على العكس .. قالت العمة ايطه وهى تتحرك يمنة ويسرة .. اننا الآن مضطرون الى احضار أولاد للعالم ، فهذا هو الزمن المناسب .

ـ بينما هناك حرب ؟ !

ـ بالذات عندما تكون هناك حرب ، الا تعتقدين ان مونتجمرى سينتصر ؟

ـ انني لا أفهم فى هذا ، قالت أمي · حتى اذا انتصر فان الحرب ستستمر وسيموت رجال كثيرون آخرون .

ـ لهذا ينبغى انجاب الاولاد .. كى يحلوا محل من ماتوا فى الحرب .

ـ لماذا ؟ صاحت امي فى يأس ، لـكى يعيشوا هم الآخرون داخل الحرب دون طعام حتى يموتوا .

ـ كيف تتكلمين هكذا ؟ الا تخجلين ؟ ! بدأت العمة ايطه تهدد أمي بأنها ستسحقها بغضبها « كى تستمر البشرية فى البقاء .. يجب علينا انجاب الاولاد .

ـ فلتلدهم البشرية اذن قالت أمي :

والآن ما راى القراء فيما لو قمنا باعادة قراءة الفقرة السابقة من قصة الاديب الاسرائيلي مع حذف كلمـة « مونتجمرى » فى جملة « الا تعتقدين أن مونتجمرى سينتصر ؟ » ووضع كلمة « ديان » .. وحذف كلمة « البشرية » فى جملة « كى تستمر البشرية فى البقاء .. فانه يجب علينا انجاب الاولاد » ووضـع كلمـة « اسرائيل » ؟

هل يمكن عندئذ ان تتكشف أبعاد الظاهرة ؟ وهل يمكن ان نعيــــــد النظر فى نقييم النصر العسكرى الاسرائيلى ؟

ان ما نراه ها هنا من ظواهر دفينة على هـــذا القدر من الخطورة فى المجتمع الاسرائيلى لم يتولد نتيجة انتصــار عسكرى ضخم أحرزناه ولـكنه تمخض عن مجرد عمليات عسكرية محدودة ولـكنها دائمة .. أبقت على حالة الحرب ساخنة ومع ذلك فلنتابع التجربة الى نهايتها لنرى كيف يؤدى الادب الموجه فى مجتمع الفزاة دوره فى علاج العلل الاجتماعية .

« بلبلت الحرارة والالم احاسيس أمى بعض الشىء ، احست برغبة فى كوب ماء ، انطمست حروف اللافتة المعلقة على عيادة الدكتور شميدت أمام عينيها ، خرج شخص من الممر مستحثا الخطى الى الشــارع ، لم تنكس أمى عينيها لتنظر فى الساعة .

ــ ان البشرية هى انت ، قالت العمة ايطه بصــوت صـــدر كأنه أمر ، لـكى تبقى البشرية .. اى لـكى تستمرى أنت فى البقاء فانه لاينبغى لك ان تأخذى هذه الحقنة ، كيف داخلك الاقتناع بهذه الفكرة ، لم اكن اعتقد هذا فيك .. انت بالذات .

فى تلك اللحظة تماما فتح شخص بالطابق الاعلى جهاز الراديو فى صوت مرتفع .. كان المذيع يتحدث باللغــة الانجليزية فى انفعال مكبوت ، كانت بعض الصــفارات المتقطعة تعوق الاستماع غير ان العمة ايطه وأمى لم يكونا يفهمان الانجليزية ، دفع الصوت المنفعل أمى الى الامام ، أزاح مرفقها العمة ايطه بعض الشىء من على المدخل واندفعت الى الامام تريد أن ترتقى الســلالم

الضيقة بسرعة لتحتمى وراء باب العيادة المغلق .

ــ كلا ! صرخت العمة ايطه صرخة خاطفة ومدت يدها فاصطادت أمى كما لو كانت دجاجة متملصة ، ووقفت كل منهما فى مواجهة الاخرى متحصنة فى موقعها

ــ لكن .. افهمى .. قالت أمى ، كان صوتها رفيعا منهكا وقد قل تماسكها ومالت مستندة بجسمها الى الحائط المطلى بالجبس وتمتمت : افهمى .. لا ضرورة ، مسموح ، ممنوع .

ــ انك تنطقين هراء.. قالت العمة ايطه وهى تلاحظ ان موقفها قد أصبح أكثر ثباتا ولذا أصبح صوتها أكثر اعتدالا من صوت أمى ، انك تنطقين هراء ، أتفكرين فيما سيحدث ؟ ! لا تفكرى فيما سيحدث ، فكرى فقط فى انه لن يكون هناك أى شىء اذا لم يكن لنا أولاد.

نظرت أمى فى الساعة . كان الموعد قد انقضى . حملت الريح سحابة من الرمال من مكان ما .

ــ فكرى أنت .. قالت أمى فى خنوع : اى ظلم يكمن فى احضار أولاد لمثل هذا العالم ، ما الذى فيه ؟ ما الذى ينتظرهم ؟ ان شيئا لم يتغير .

ــ أن شيئا لن يتغير اذا لم يحضر الناس أولادا للعالم .

قالت ايطه : ما معنى أن نعيش لشىء اذا لم يكن هذا الشىء هو احضار أولاد للعالم .. كى يستمر كل شىء على الرغم من الحرب .

ــ ولكن شيئا لن يتغير ، قالت أمى وصعد مذاق كريه من بطنها الى فمها وأحسبت ثانية بشوق الى كوب ماء ولم تلحظ العمة ايطه ذلك .

ــ من أين تعلمين أن أى شىء لن يتغير ! يا سارة ،

ان اسرائيل زوجك يعمل فى الصحراء كى يبنى حصونا بينما انت ذاهبة لتجرى عملية اجهاض ، ماذا سيقول اذا علم بهذا الأمر ؟

ـ اناسرائيل زوجى يعمل فىالصحراء بينما برومقين يقوم بصفقات سوداء ويثرى ، قالت أمى فى مرارة ، وفجأة قالت فى ذعر : انه لن يعلم .

ـ سأخبره أنا ، قالت العمة ايطة مهددة .

بدا لها ان انتصارها أصبح مؤكداً وما عاد أمامها سوى انتؤمنه وان تدفع العدو الى الانسحاب للخلف حتى يبتعد عن الممر وحتى يتأخر تماما عن الصعود الى العيادة واخذ الحقنة .

قالت امى انا فى حاجة الى كوب من الماء .

اغتنمت العمة ايطه الفرصة وامسكت بمرفق امى .. « هلمى الى فيسكو » وابتعدت الاثنتان ، ضعفت حركات يدى العمة ايطه .

كانت الشمس فى كبد السماء ، وعلى قمة الجبل وفى مكان ما بالصحراء كان القتال حامى الوطيس وفى أوجه ، فى كل مكان كان يسير رجال بوجوه منكسرة وقلقة ، بينما كانت العمة ايطه وحدها تسير سيرا منتعشا واثقا ، ليفعل الجنرال مونتجمرى ما يفعل فلقد انقذت هى البشرية .

عندما يتصادف وجودى بالمدينة فانه لا مفر لى من الذهاب لزيارة العمة ايطه .

وفى يوم الاحتفال ببلوغى سن التكليف الدينى قصت على القصة للمرة الاولى وحفزتنى الى الزواج وانجاب الاولاد المتعاقبين .

اننى لا اعرف كيف شكرت البشرية الجنرال

مونتجمرى لانقاذه اياها ، من المؤكد ان هذا كان فى شكل المجاملات الاجتماعية العادية ، أما بالنسبة لى فاننى أحمل على كاهلى العرفان للعمة ايطه مثل أطلس فى زمانه .. وانا أجلس تحت صورة العم حاييم المعلقة فى حجرة الضيوف لاستمع ثانية وثانية الى قصة كيف انقذت العمة ايطه البشرية وكيف ولدت أنا » .

هكذا يتم الكاتب ايصال رسالته الى القارىء الاسرائيلى الواقع فى مخاوف الحرب ، ففى لحظة التنوير يكتشف القارىء بعد أن تهيأ فى سياق القصة لقبول منطق الاخلاق والضرورة الاجتماعية .. ان ذلك الجنين الذى كاد أن ينزل من رحم أمه سقطا فى بداية القصة ــ لو كانت أقدمت على أخذ الحقنة ــ قد أصبح فى النهاية الانا القاص الانسان المكتمل الذى يتحدث اليه فى القصة .

هنا يوفق الكاتب الى احداث حالة الانفجار العاطفى لدى قارئه الذى يفكر فى اسقاط جنينه ممثلة فى صحوة من الوعى تدعوه الى استشراف مستقبل حى فتى وناطق لجنينه الذى يفكر بفعل الخوف فى اسقاطه ميتا .

بهذا الحد من الحديث عن ظاهرة العزلة واليأس فى المجتمع الاسرائيلى المنتصر فى الساحة العسكرية .. لا اظننى فى حاجة الى مزيد من التعليق فالظاهرة واضحة ، ودوافعها واضحة .. والدرس المستفاد من كشفها اجلى وأوضح .

الفصل الثالث

القصص السياسى

- أغنية الاوز : ران أدليسط
- الدب : اورى بن ارياه

مضامين السياسة الصهيونية

لاحظنا فيما سبق من نصوص أدبية بعيدة فى تناولها للواقع عن طابع الادب السياسى المباشر .. وجود خطين اساسيين يستوعبان المضامين السياسية الصهيونية التى يرد التعبير عنها فى سياق التناول الادبى العام .

الخط الاول هو خط الادب الموجه أو الخاضع لالتزام حاد وقصوى بالقضية الصهيونية ومقولاتها ، ومن ثم فهو يتميز بالتباعد المتطرف عن الموضوعية فى النظر الى طبيعة الصراع العربى الاسرائيلى .. فيتجه الى طمس ملامح الموقف على طرفى الصراع بجنوحه الى تصوير الجانب الاسرائيلى على انه وريث مركز وموحد للمشكلة اليهودية التى كانت منتشرة موزعة على مساحة المجتمعات الاوربية فى الماضى .. ووريث ما زال عليه ان يتحمل البقية الباقية من فيض العذاب اللاسامى فى مواجهة العرب الذين يورثهم هذا التصوير المزيف موقف اللاسامية القديمة .

ومما لا يفوتنا التنويه به فى شأن هذا الخط .. انه لا يمثل نبتا جديدا فى تربة الادب الصهيونى بل هو فرع يحمل أوراق الظروف الجديدة على شجرة عتيقة فى هذه التربة وهى شجرة اليهودى المعذب دائما فى مواجهة العالم دون ما ذنب جناه .

وعلى نفس الشجرة القديمة هـــــذه نجد تفريعات جديدة بعد الحرب الاخيرة نحو تأكيد المعاني التقليـدية التى ظل الادب الصــهيونى يسعى الى تأكيدها حول عصمة البطل الاسرائيلى وتنزهه عن كل المشاعرالطبيعية التى تميز البشر العاديين وتجعل منهم بشرا من خوف وقلق وتردد وغموض رؤية فى المواقف وما الى ذلك من نوازع الانسان العادى وهو ما كان يصعب رؤيته فى الابطال الاسطوريين او بالاحرى الوهميين الذين حرص الادب الصهيونى على انشائهم دائما قبـل قيام الدولة وبعدها (١) .

أما الخط الثانى الذى نلاحظه فهو خـط الالتزام المتحلى بميل نحو الموضوعية فى تناول القضايا ورسم الشخصيات ، فيتجه دون ما خروج عن الالتزام العام الى الـكشف عن المواقف السلبيةعلىالجانب الاسرائيلى استهدافا الى تجاوزها والتخلص من آثارها ونتائجها .

ومن بين ركام الانتاج الادبى الذى يتخذ من المواقف السياسية موضوعا أساسيا له بعد حرب ١٩٦٧ والذى يندرج فى مجموعه فى هذين الخطين .. انتخبت للقارىء العربى نموذجين من القصة القصيرة فى هذا الفصل ، أولاهما بعنوان « أغنية الاوز » وهى تتعرض بالتناول المباشر لموقف المحارب الاسرائيلى العادى من الاوضاع السياسية التى تحوطه والتى تؤدى به فى نهاية الامر الى القبوع فى موقع عسكرى ضيق محدود فى انتظـار الموت بين لحظة وأخرى .. وتكشف عن مدى الحرية الذاتية المتاحة لهذا المحارب فى اختيار موقفه من قضية

---

(١) انظر غسان كنفانى .. فى الادب الصهيونى .. دراسات فلسطينية رقم «٢» ص ٩٦

الصراع العربى الاسرائيلى ، اما القصة الثانية فتقدم تناولا رمزيا ضبابيا لاحساس الخطر المحيق الذى يتوقعه الاسرائيليون نتيجة للوجود السوفييتى المؤيد للمقاومة العربية الشاملة داخل حلقة الصراع .

والقصة الاولى « أغنية الاوز » لكاتب مرموق فى عالم الادب الاسرائيلى هو « ران ادليسط » وهو يحتل مكانة هامة بين كتاب القصة السياسية ويتميز بعمق التناول والنفاذ الى أعماق الواقع لكن دون انفصال عن موقف الالتزام بالموقف الاسرائيلى فى الصراع ، وهذه القصة التى تمتلك قدرة على الكشف قد توازى طاقة عمل روائى كامل .. تقدم تشريحا أقرب الى الموضوعية من غيرها لشخصية البطل الاسرائيلى المحارب على الجبهة العربية .. رغم ما تحمله من بصمات الموقف الصهيونى التقليدى الذى يسعى الى انشاء البطل الاسرائيلى مرهف الاحساس الذى لا يريد الحرب ومع ذلك لا يتوانى عن البلاء فيها طالما انه رهن لها .. البطل المؤمن بانتمائه القومى وموقفه القوى المتفوق .

ذلك ان البطل فى هذه القصة .. وهذه لمسة موضوعية ـ يعانى نوعا من الفصام بين احساس الانتماء القومى وما يقتضيه من بذل وبين حرصه على سلامته الشخصية واصراره على البقاء سليما معافى من التشويه الجسدى حتى ولو كان هذا على حساب المصلحة القومية التى يؤمن بها . وهو بطل يعانى الى جانب هذا الفصام بين معنى التضحية فى سبيل الوطن ومعنى الاحتفاظ بالذات من حالة عجز عن تبين الحقيقة السياسية التى يجب أن يتبناها داخل نفسه نتيجة لحيرته فى اتخاذ

موقف واضح تجاه التيارات السياسية المختلفة فى مجتمعه والتى تتراوح فى حديها الاقصى والادنى بين تيار الالتزام بالمقولات الصهيونية الاساسية الداعية الى التمسك بالاراضى العربية المحتلة بعد ١٩٦٧ واعتبار الاستيلاء عليها مجرد مرحلة نحو تحقيق هدف اسرائيل الكاملة .. وهو الامر الذى يستوجب مزيدا من القتال واستمرار الصراع وبالتالى تعرض البطل المخطر الجسدى الذى يخشاه .. وبين تيار التعقل العملى الداعي الى محاولة تفهم بعض الحقوق العربية واسترضاء العرب برد بعض ما أخذ منهم وهو ما يمكن ان يؤدى ـ فى التصور الاسرائيلى المعتدل الى حالة امان عامة وبالتالى الى كفالة السلامة الشخصية للبطل المحارب .. ولكن على حساب الآمال التاريخية فى اسرائيل الكاملة .

ونتيجة لهذا الموقف الفصامى الجديد تجاه التيارات السياسية الموجهة لمجرى الصراع على الجانب الاسرائيلى والذى يفرض على البطل حالة العجز عن اتخاذ موقف اختيار ذاتى .. فانه لا يجد مفرا من السقوط الاضطرارى فى موقف من الجمود العقلى والفكرى ، وموقف الجمود هذا هو عين الاطار الذى يبتغيه صناع الانسان فى اسرائيل ليبرزوا داخله مثال البطل المنشود ،انه مثال البطل غير الواعي .. « ان كل ماينبغي عليك عمله هو ان تصورنى وعندئذ سترى المثال ، حقيقة انه مثال غير واع ، ولكنه المثال .

ـ وهذا بالضبط ما نحن فى حاجة اليه الآن .. أمثلة غير واعية

ـ دعك من السخرية .

ـ أية سخرية ؟ .. اننى أتحدث فى موضوعية كاملة. ان الجندى الحسن هو الجندى الذى ينفذ الاوامر الى نهايتها . »

البطل الذى عليه أن يكون محاربا لأن العرف العام يقتضى أن يكون البطل محاربا .. وأن يطيع فيكون قاتلا اذا طلب منه أن يقتل وأن يذعن اذا قيل له استوطن الارض العربية .. فيصبح مستوطنا.. باختصار عليه أن يكون آلة بشرية تتحدد حركتها حسب الشحنة التى يبعثها فيها الزر المضغوط ، وهذا هو الامر الحيوى المطلوب من البطل الآلة دون أن يكون لايمانه بشعارات الوطن والارض التاريخية والاماكن المقدسة أى حساب من الاهمية فى الموقف طالما ان هذا البطل ينصاع الى ما يصب فى أذنيه من أوامر وينفذ ما يوجه اليه من تعليمات متوافقة مع التنشئة العدوانية التى يربى عليها من صغره (١) .

« ـ بالاضافة الى ذلك فان هناك جماهير من الرفاق متحمسين لهذه القضية .. قضية الوطن الكامل .. انك تعرف التاريخ والمشكلات .

ـ ليذهب هؤلاء الرفاق الى الجحيم .. يقال طيلة الوقت أن هناك جماهير منهم .. حتى اننى قرأت فى الصحف ان البلاد مليئة بهم ، ولكن أين هم بحق الشيطان ؟ من هم ؟ الا أعرف أنا عددا كافيا من

(١) يتفق ذلك مع ما نشير اليه الدراسة السيكلوجية التى قام بها قدرى حفنى لنموذج الكيبوتز باعتباره النموذج الذى تحاول اسرائيل أن تركز عليه الضوء باعتبار ان اساليب التربية المتبعة فى الكيبوتزات تخلق بالفعل أبطالا من هذا الطراز بالتحديد (راجع: قدرى حفنى ـ تجسيد الوهم ـ مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية ـ مؤسسة الاهرام ـ ١٩٧١) .

الرفاق ؟ انني اعرف الملايين ومع ذلك فانني مضطر لان أبحث بينهم على ضوء شمعة عن هؤلاء المتحمسين. وعندما أعثر عليهم فانني لا اجد رفاقا .. هيه . سأشرح لك .

انني أعرف جماهير من الرفاق يفعلون ما يقال لهم دون نقاش .. اذا قيل لهم حاربوا .. فسيحاربون ، واذا قيل لهم استوطنوا ، فسيستوطنون .. اذا قيل لهم اقتلوا ، فسيقتلون . ولكن أين هم من الحماس للأماكن المقدسة .

ومع ذلك فان مثال البطل الذى يصب فى هذا القالب الآلى الجامد لا ينجو من المعاناة .. فالبقية الباقية من بشريته تفرض عليه المعاناة نتيجة احساسه بالعجز الانسانى عن التفكير والحركة المؤمنة النابعة من داخله.

« انني أعرف انني أجلس الآن على القناة .. داخل موقع مسلح فى مرمى نيران العدو .. أعانى معاناة قاسية من المأساة القديمة .. مأساة الجندى البسيط الذى لا يتخذ قرارا أو يعرف حتى تنتهى المهمة التى يؤديها ، أنه لايعرف ماذا كان هناك مايبرر المهمة ام لا

هو لايمكنه أن يدرك ما اذا كانت المهمة ضرورية بوجه عام أم لا الا بعد بضع سنوات طيبة » .

ومع كل هذا الاحساس لدى البطل المقولب بموقف الضآلة الانسانية الذى لا يتيح له قدرا من الايمان الذاتى الحر بالعمل الذى يقوم به ــ وهو ما ينفى لدى المناضلين المؤمنين بقضيتهم احساس العجز هذا حتى ولو غابت عنهم معرفة لحظة القرار بالفعل والحركة ــ فان عليه أن ينجى نفسه من الاحباط الانسانى المطلق تعللا بحصوله على الضرورات الميكانيكية الاساسية اللازمة لحياة الانسان .

« كلا ، ولماذا اشعر بالاحباط ؟ اننى ذكى جميل .. وانا اضاجع الحسناوات ، ان هذا السيجار لذيذ الطعم اليس كذلك ؟ » .

هكذا يكشف لنا ران ادليسط فى قصته القصيرة هذه عن نمط جديد من شخصية الشباب الاسرائيلى الذى اكتشفنا منه انماطا أخرى مختلفة عبر الاعمال السابقة وان كانت كلها تجتمع فى دائرة واحدة .. وهى دائرة الانسان المستخدم دون أن يدرى وتحت شعارات ديماجوجية مثيرة .. كأداة وآلة فى أيدى مستثمرين كبار ينتمون فى النهاية الى معسكر الامبريالية العالمية .

هذا عن القصة الاولى فى هذا الفصل .. أما القصة الثانية فعلى الرغم من التعبير الضبابى الغامض الذى يصوغ فيه كاتبها المحتوى الذى يريد أداءه .. فانها تكشف عن نوع آخر من القصص السياسى الاسرائيلى، وهو القصص التسجيلى لمواقف السياسة العامة خارجية وداخلية ، والتسجيل هنا منصب على اثبات مغزى التدخل السوفييتى الى جانب العرب وما يعنيه من تعريض الوجود الاسرائيلى للخطر ، ولعله مما قد يفيد القارىء العربى فى فهم القصة أن نشير الى انها قد نشرت فى نفس الوقت الذى كانت الصحف الاسرائيلية مكتظة فيه بمقالات التخوف والاستنكار لموقف السوفييت فى ادخال الصواريخ المتقدمة المضادة للطائرات الى ساحة القتال أثناء المحاولة العسكرية الاسرائيلية لتصفية جبهة القنال المصرية عام ١٩٧٠ .

أغنية الإوز

ران اديلسط (1)

لحظات الفسق ما بين غروب الشمس وبزوغ القمر وآخر الخيوط الشمسية تتكسر على ذرى التحصينات وزوايا المواقع على الجانب الغربى من القناة .

كان قرص القمر المنبلج من خلف سلسلة الربى الواطئة البعيدة يسكب نورا باهتا على فتحات الدشم وعلى عربة الطعام المشدودة الى عربة نصف جنزير فيكشف عن عدد هائل من الثقوب يرصع لوح العربة الجانبى

كان الموقع الليلى معدا على ما ينبغى ولم يكن هنالك ما يجب عمله سوى ترتيب حائط الاكياس الرملية التى تبطن جدار الموقع على صورة ثابتة مستقرة .

يقال ان الاصابة المباشرة تمثل احتمال واحد فى المليون .. ومن المهم أن تكون القذائف نفسها على تسليم بهذا الاحتمال .

كان ايتسيك الجالس بالموقع مديد القامة مهدل الثياب والحركات .. ترتسم على وجهه تعبيرات الارهاق ، نظر فى ساعته ، بعد عشر دقائق ينضم اليه يوسى وهو الآخر مديد القامة وان كانت حركاته وملابسه تتسم بالدقة ، ومع ان وجهه كان يحمل نفس التعبيرات المرهقة الا انه كان يضم الى ذلك تعبيرا آخر .

اكتمل اليوم أسبوع على مكثهما معا كل ليلة فى هذا الموقع .

(1) على همشمار .. 17/4/1970

فى ليلتهما الاولى اصيبا بصدمة ، كانت كل قذيفة تسقط تفجر فى نفسيهما شعورا بأن نهايتهما قد حانت مع سقوطها ، الصفير والدوى وزلزلة جدران الموقع وتراقص الخوذات .

بعد ذلك تعودا .. كانا يقذفان بنفسيهما على عجل من خلال الفتحة الضيقة .. ينكس كل منهما رأسه بقدر معين ويضغط بيديه على حافة الخوذة الحديدية. وخلال جزء الثانية الواقع ما بين الازيز الملهوف والسقطة المرعدة .. كان كل واحد يضغط جسده حتى أطراف اصابعه فى نقطة متناهية الضآلة حتى يبدو كراس دبوس لا جسم له ، وبعد ذلك كان كل شىء يسترخى من تلقاء نفسه فى بطء .

على هذا النحو من التصرف يتاح لهما أن يكونا رابطى الجأش أثناء القصفات ، جزء من الجسد يؤمل وينكمش وجزء يتطلع ويرسل التقارير .. بينما الصلة بين الجزئين معدومة تماما ونغمة الصوت الذى يحمل التقارير هادئة وأحيانا جزلة ، جزله حقا فى بعض الاحيان

وفى الصباح وعندما تتسع دائرة الضوء المغبش الى حد الرؤية الفعلية كانا ينزلان من الموقع وينشغلان باحصاء الحفر الصغيرة التى تخلفها القذائف من عيار ٨١ مم ويتفحصان فى خوف الفوهات الفائرة المتخلفة فى الارض عن القذائف من عيار ١٢١ مم ، ١٦٠ مم .

فى أحد الايام وجدا فى قناة الاتصال المؤدية الى موقعهما انهيارا نتج عن قذيفة ، قالا : « ليست هذه قذيفة » .. « انها احتمال .. ومن سمع عن احتمال يقتل؟»

فى احدى المرات كان ايتسيك ينظر فى العتاد يتفحصه قطعة قطعة بيدين تتحركان فى تمرس ويقدر زاوية توجيه الرشاش .

واقبل عليه يوسى .

ــ أهناك جديد ؟

ــ ثلاثة اسابيع اخرى .

ــ حتى هذا يمثل خبرا جديدا .

ثم جلسا كل منهما يدخن سيجارا كبيرا فى صمت ، بين الفينة والاخرى كان أحدهما ينهض ليلقى نظرة فى المنطقة المحيطة .

ــ سمعت انكم قد هربتم اليوم من موقع المراقبة ، قال يوسى ..

ــ هربنا ؟ انه لتعبير مخفف .

ــ ماذا حدث ؟

ــ وجهوا المدافع المضادة للدبابات الى الموقع ، كنا نجلس محاولين تحديد الموقع الذى قصف الموقع ن. وفجأة سقطت قنبلة وامتلأ الموقع بدخان ملتهب ، جلسنا على الصندوق وكل منا ملتصق بالآخر محاولين أن نتمالك أنفسنا وأن نفكر فيما يجرى ، انك تدرك بالطبع ماذا يكون الحال ، غريزة تستصرخ الانسان كى يهرب وأخرى تتساءل عما عسى أن يقوله الرفاق ، وعندما كدنا نصل الى قرار لحق بنا رفيق ثالث ، كان أطول قامة ، وأدركنا اننا على لوحة التوجيه فى مدافعهم اذن فقد اكتشفوا الموقع ، وتولانا الرعب فأطلقنا سيقاننا هاربين ، وكما سمعت فقد فررنا الى داخل الدشمة ، جلست هناك حوالى عشر دقائق حتى استطعت أن ألم عظامى التى اختلفت مواضعها من الصدمة وبعد ذلك فقط ذهبنا لنبحث عن موقع بديل.

ــ لقد اطلت الحديث .. قال يوسى . والآن كيف سننظم انفسنا الليلة ؟

ــ هل تعلم انني أتمنى أحيانا أن يجيئوا ، ليس هذا عملا أن نستعد وننتظر كي نستعد وننتظر لنستعد ثم نعود فننتظر ، لقد سئمت ، أن يجيئوا ويهاجموا فهذا يعني اننا سنهاجم بالتالي ونضع لهذه العملية نهاية .

ــ أين أنت من هذه النهاية ؟ ان النهاية بالنسبة لك ليست سوى ان تنفق هنا (١) واذا ما قتلت عشرة من العرب فان هذا سيكون النهاية بالنسبة لهم ، أما العملية نفسها فلن تكون لها نهاية ، انني أعتقد ان هذا لن يؤدي الا الى اطالة أمدها ، وانت تعلم على اي نحو سيكون الوضع حينذاك ، فأنت ستتباهى بالنجاح في ضربهم وستقول في فخر : هكذا ، انني مستعد طيلة الوقت

اما هم فسيعتريهم السخط على فشلهم وسيحاولون مرة أخرى .

ــ أو كي ليرسلوا آخرين وآخرين ، فسنضربهم جميعا .

ــ لم أكن أعلم انك سفاك دماء على هذا النحو .

ــ من سفاك الدماء ؟ اني اقول هذا لمجرد انهم يريدون قتلي .

ــ لكنك قلت انك تريدهم أن يجيئوا . الم تقل ذلك ؟

ــ هيه ! ! اخذتني بكلمة ، دعنا اذن نجري مساجلة بالمنطق وعلم النفس لنرى أين نقف .. هيه ؟

ــ كي يتم هذا فلا بد أن نبدأ من المشكلة الصهيونية

ــ اي منطق هذا ؟ انني هنا المعرض للفناء وليست الصهيونية أو شعب اسرائيل .

ــ انك اذا لم (تمت) هنا .. فان شعب اسرائيل لن يعيش هناك .

---

(١) هكذا وردت بالنص العبري .

ـ هل تقول هذا لانك متأكد منه أم لانه حجة فى النقاش؟ « لهجة الصوت مكدودة وممطوطة .. تحمل نغمة عدم المبالاة بدرجة معينة » .

ـ « هيه » سترى انني لا أعرف بقدر كاف يمكننى من أن أتكلم بصورة يقينية .

ـ ومن الذى يعرف ؟

ـ ما هذا السؤال ؟ الجنرالات .. رؤساء الحكومات وزراء الدفاع والبقال الذى أتعامل معه يعرف هو أيضا .

ـ وما الذى يعرفونه أكثر منكَ ؟

ـ انهم يعرفون ماذا سيحدث اذا لم نقعد هنا ، هم يعرفون ماذا سيفعل الروس وما الذى سيفعله ناصر وماذا سيفعل الامريكيون ؟

ـ وهل يعرف كل منهم ماذا سيفعل صاحبه ؟

ـ دعك من السخرية والتهكم ؟

ـ ما شأن التهكم بما أقول ، قلنا ان هذه مساجلة وبناء علي ذلك أسـألك .. من أين لك أن تعلم انهم حقيقة يعرفون ؟

ـ قبل كل شيء أنا أقعد هنا .. ومن المؤكد انهم يعرفون ذلك .. أليس كذلك ؟

ـ بلى .

ـ انني أقدر ان وجودى هنا يمثـل أفضل خيـار ممكن ، أعنى أنهم يقدرون ذلك ، ذلك انك اذا أردت شيئا مثل السلام والامن فانه لابد لك من بذل كل أنواع الاشياء : العمل ، المـال ، وكذلك الدماء .

ـ السلام قبـل كل شيء ، وكما يقولون جميعـا اليوم .. السلام والحدود الآمنة ، هل ستقول انك تريد أن تناقش ما المقصود بعبارة الحدود الآمنة ؟

ــ أنا كردى والسلام بالنسبة لى هو عدم اطلاق النار
ــ توقف عن اطلاق النار اذن .
ــ ومن أين لك أنهم سيتوقفون بدورهم ؟
ــ ومن أين لك أنهم لن يتوقفوا .. هل حاولت ؟

ــ كلا ، ولكن فضلا عن ذلك فان هناك الحدود الآمنة ، ولا تنسى ان الوقوف عند المطالبة بالحدود الآمنة يمثل ايضا انتقاصا من أرض اسرائيل .. اننى لست من المنادين بأرض اسرائيل الكاملة ، لكننى أعتقد ان الحصول على رقعة أرض تكفل الحدود الآمنة أمر لا يضر ، وبالاضافة الى ذلك فان هناك جماهير من الرفاق متحمسون لهذه القضية .. قضية الوطن الكامل .. انك تعرف التاريخ والمشكلات .

ــ ليذهب هؤلاء الرفاق الى الجحيم ، يقال طيلة الوقت ان هناك جماهير منهم .. حتى اننى قرأت فى الصحف ان البلاد مليئة بهم ، ولكن أين هم بحق الشيطان ؟ من هم ؟ الا أعرف أنا عددا كافيا من الرفاق؟ اننى أعرف الملايين ومع ذلك فاننى مضطر لان أبحث بينهم على ضوء شمعة عن هؤلاء المتحمسين ، وعندما أعثر عليهم فاننى لا أجد رفاقا ، هيه .. هيه .. سأشرح لك ، اننى أعرف جماهير من الرفاق يفعلون ما يقال لهم دون نقاش .. اذا قيل لهم حاربوا .. فسيحاربون، .واذا قيل لهم استوطنوا.. فسيستوطنون واذا قيل لهم اقتلوا ، فسيقتلون .. ولكن أين هم من الحماس للأماكن المقدسة ؟ على أى حال فانه يبدو لى أن كل من يكتبون عن هذا لا يدركون انه يمكن يقينا القيام بكل هذه الاعمال دون أن تمس مدينة الخليل قلب أحد ، اننى أعرف بضعة أسباب أخرى للقيام بالاعمال الوطنية .

ـ حسنا .. لنترك السياسة اذن ولنهتم بأنفسنا ، ما الذى تفعله هنا ؟

ـ أى سؤال هذا ؟ لقد استدعونى الى الاحتياط فجئت

ـ ولو لم يدعوك .. فهل كنت ستأتى ؟

ـ كلا ، ولكننى لم أشأ أن اتهرب ، لقد كان يمكننى قطعا أن أعفى نفسى بسهولة وكذلك انت .. أليس كذلك ؟

ـ بلى .

ـ اذن ما الذى تبغى الوصول اليه بهذا الاستقصاء ؟

ـ اننى لا استقصى .. اننا نجرى مرانا فى المنطق وعلم النفس .. أليس كذلك ؟

ـ آهاه .. يهمنى لو انك اجريت هذا المران فجأة فى تل أبيب كذلك .. ألست متأكدا من أن الظروف هنا تؤثر بعض الشىء ؟ ..

ـ ربما .

ـ ماذا تعنى ربما ؟ نعم أم لا ؟

ـ ربما .

ـ حسنا .. اذن فقد بات من الواضح لنا انه لايمكن استخلاص نتائج من مساجلة نجريها تحت ضغط ظروف معينة ، لنرجىء استخلاص النتائج الى نهاية المناقشة ولنجر النقاش فى تل أبيب بأحد المقاهى .. هيه ؟

ـ هيه ..

ـ لا تكن تهكميا على هذا النحو ، لقد اعترفت بنفسك انه كان يمكنك أن تعفى نفسك ، لقد جئت بسبب ما يسمى « بالوعى الداخلى » .

ـ اننى لا أعرف الكثير عن الوعى الداخلى ، ولكن هناك أمرا واحدا أستطيع أن أتحدث عنه بثقة كاملة

على انه وعى داخلى كامل يقع فى دائرة الشعور ودائرة اللاشعور ، اننى لا أعرف كيف ستسميه .. وهو يتحدد فيما يلى :

أن أنفق .. فهذا أمر لا أريده ، واذا حاولت أن اربط بينه وبين واجبى فى سبيل الوطن .. فان المحاولة تصبح بالنسبة لى أمرا فظيعا معقدا ، لو قلت لى الآن بكل الجدية : ان واجبك الوطنى يتطلب منك الصعود فوق سطح الموقع لتفعل كذا وكيت ثم تتلقى رصاصة فى رأسك فاننى لا أعرف ما اذا كنت سأصعد أم لا ، اننى أدرك ان هذه مسألة افتراضية وأن هناك تأكيدا دائما على عدم التعرض لمثل هذه المخاطرة الفجة .

لكنك اذا قلت لى اننى سأصبح مشوها فاننى اعتقد اننى لن أكون مستعدا لذلك .

ــ انت تتحدث بهذه الصورة ؟ لقد كنت طيلة معرفتى بك تجرى الى أى مكان تفوح منه رائحة الخطر ، لقد ذهبت لتخدم فى أشد وحدات الجيش خطورة أليس هذا نصف تشوه ؟

ــ كلا .. ليس هناك نصف تشوه ، هناك تشوه وما يتبقى عند ذلك ليس سوى الروح .

ــ حسنا .. لقد شاركت منذ فترة قصيرة فى بضع عمليات هائلة الخطر ، وان مجرد تفكيرى فى انه كان ينبغى على أن أكون هناك معك يبعث القشعريرة فى جسدى ، فلماذا تقفز فجأة الى موضوع التضحية من أجل الوطن ؟

ــ مهلا .. فهذا ما أريد أن أشرحه لك .. اسمع :

ان مقعدتى كما تعلم مكونة من قسمين .. فى أحدهما فلفل أحمر وفى الثانى فلفل أخضر ، وكلاهما

حريف ، وعلى هذا فان تحركي في اى اتجاه انما يكون بسبب مقعدتي .. لانني أريد أن أثبت لنفسي ــ وهذا لانني نشأت في الكبوتس حيث الكل هناك محاربون والعرف العام يقتضى هذا ــ ما اذا كنت أنا الآخر مفيدا للوطن ام لا

ان هذا اعتبار له قيمته ولكنه ليس الاعتبار الوحيد وربما ليس الاعتبار الاول .

ان كل ما ينبغى عليك عمله الآن هو أن تصورني وعندئذ سترى المثال ، حقيقة انه مثال غير واع ، ولكنه المثال .

ــ وهذا بالضبط ما نحن فى حاجة اليه الآن .. امثلة غير واعية .

ــ دعك من السخرية .

ــ اية سخرية ؟ انني اتحدث في موضوعية كاملة ، ان الجندى الحسن هو الجندى الذى ينفذ الاوامر الى نهايتها وكذلك هو الجندى الذى لا يكره العدو .. أم انك ترى غير ذلك ؟

ــ لا تكن جائرا ، انني لا اكرههم لانه لا صلة لى بهم .. انني أريد منهم أشياء واضحة ، ولقد حصلت على بعض من هذه الاشياء ، واذا واظبت على هذا الموقف فانني سأحصل على الباقى فلماذا أكره اذن ؟ فضلا عن ذلك فان الكراهية تعكر هدوء النفس فلماذا أشعر بالكراهية ؟ انني اريد أن أظل صحيحا .

ــ قل لى الآن من هو الجائر ؟ انك تريد أن تضرب وأن تظل هادىء النفس فما الذى سيقوله من تلقى الضربة ؟ هل سيتلقى الضرب فى هدوء ؟

ــ سيتعلم درسا .

ـ اذن فما جئنا نفعله هنا هو أن نعلم العرب درسا !! ما هذا .. هل أنا رجل تربية وتعليم ؟

ـ وماذا عن أننا اذا لم نكن هنا فان شعب اسرائيل لن يكون هناك ؟

ـ انني لا أعرف ، واما انني محق فى عدم معرفتي وأما ان هذا ليس فى منتهى الاهمية بالنسبة للاحساس العام

ـ اذن فهذا احساسك .. هيه ؟ .. لو شنوا ضدك حرب استنزاف لبضع سنوات وفقدت ملابسك الداخلية بالفعل فهل ستكون رجلا ؟

ـ لا تطمس الاشياء .. الا تفكر فى أنه توجد خارج مسألة رجولتى بضع موضوعات أخرى للنقاش ؟ أن الذى يواجهنا ينبغى عليه أن يحارب لان كرامته قد انتهكت ، وعلى أنا أن أصمد لاثبت انني رجل ، ما هذا هل نحن فى حضانة أطفال هنا ؟

ـ تماما ولكن بدون حاضنة .

ـ انني موقن من ان القضية أعمق من كل الشطحات التى قمنا بها هنا . ان هناك شيئا ما .. منظورا تاريخيا أو شيئا آخر مشابها .. وببساطة فنحن لا نقدر على فهمه وادراكه ، من المحقق ان هناك جوهرا قوميا بينما نعجز نحن عن الاحساس به باعتبارنا أولادا صغارا ساذجين .. ان هذا ما يحدث عندما ..

ـ مهلا ، مهلا .. ان نقيقنا الساذج يتناسب تماما مع بعض الاعمال المتوهة التى نراها حولنا ، انني لا أعاني أى نقص فى الاحساس بمدركات الجوهر القومى او ليس جلدى جزءا من الجوهر القومي ؟.. واذا لم يكن ، فما الذى يعد جزءا من الجوهر القومى اذن ؟ هل هو الاحساس الدينى الخاص لدى الحاخام ملوففيص .

لماذا لا تعتقد ان ما نستشعره ونفكر فيه ونعمله هنا هو القمة .. هو المدى الصحيح بينما ما عداه مجرد سفسطات وتحسبات ؟

ــ قل لى .. هل انت من متسبين ؟ (١)

ــ دعنا من هؤلاء المعتوهين .. انهم يثيرون سخطى ليس بما يقولون بل لانهم واثقون من انهم على حق .

ــ وماذا يقول أخوك ؟

ــ دعنا منه فهو من الجيش العامل ، والجيش المنتصر لا يتخلى عن الارض.. فهذه مسألة استراتيجية فضلا عن ذلك فانه لابد وأن يكون عدوانيا بسبب وظيفته ولكننى أعرفه .. انه على ما يرام .. انه فى جانبنا .

ــ حسنا ، لقد شطحنا وشطحنا فالى اين وصلنا ؟

ــ لقد قلنا فى البداية اننا لا نريد نتائج .. أليس كذلك ؟

ــ حسنا لنعرف على الاقل أين نقف .

ــ الا تعرف ؟

ــ اننى أعرف اننى أجلس الآن على القناة .. داخل موقع مسلح فى مرمى نيران العدو.. أعانى معاناة قاسية من المأساة القديمة .. مأساة الجندى البسيط الذى لايتخذ قرارا أو يعرف حتى تنتهى المهمة التى يؤديها ، انه لا يعرف ما اذا كان هناك ما يبرر المهمة أم لا ، هو لايمكنه أن يدرك ما اذا كانت المهمة ضرورية بوجه عام أم لا الا بعد بضع سنوات طيبة .

---

(١) جماعة اليسار الجديد فى اسرائيل الداعية للتفاهم مع العرب ورفض الصيغة الصهيونية للدولة الاسرائيلية .

ـ حسنا ، الاساس الآن هو ان الهدف العام على ما يرام .

ـ هل تشعر بالاحباط الى هذه الدرجة ؟

ـ ستدهش لجوابى ولـكنى لا أشعر بالاحباط بوجه عام .

ـ هل تشعر بالامان ؟

ـ كلا ، ولماذا أشعر بالاحباط ؟ اننى ذكى .. جميل .. وأنا اضاجع الحسناوات ، ان هذا السيجار لذيذ الطعم ، اليس كذلك ؟

هل ستسقط قنبلة ؟ لقد سمعت ان الموقع البديل على طريق الامدادات يمثل انتحارا حقيقيا .

ـ ماذا اذن ؟ هل سنظل هكذا للأبد ؟

ـ هل جننت ؟

ـ هل ننسحب ؟

ـ هل جننت ؟

ـ حرب جديدة اذن ؟

ـ هل الموقف مجرد من الامل الى هذا الحد ؟

ـ هل تعرف ماذا تريد ؟

ـ كلا .. وانت ؟

ـ كلا ..

ـ وا حسرتاه على الاوز اذن .. هيا بنا نفتش على الموقع الثانوى ..

ـ بوم ! !

الدب . .

أورى بن أرياه (١)

صرخ رجل مستنجدا بأعلى الشارع ، كان صوته عاليا هستيريا يكاد بنسم بالوقاحة ، كانت ابنتى التى تبلغ من العمر خمس سنوات تلعب هناك الى جوار شجرة عالية مشروخة .

كنت أقف على مدخل مقهى متواضع بأسفل الشارع، وصل الى سمعى الآن صوت الرجل وهو يصرخ .. الدب ! الدب !

هرول بعض الاشخاص الى الشارع ، راحوا ينظرون هنا وهناك ثم رفعوا عيونهم الى السماء ، كانوا يبحثون عن طائرات ، لم تكن فى السماء أية جلبة غير عادية ، توقف اوتوبيس فى المحطة ، كان خاليا من الركاب وبداخله كمسارى يبدو عليه السأم .

لم ير الكمسارى شيئا .

كانت ابنتى تلعب هناك .. بأعلى .. مع صاحباتها ، بريئة فى الخامسة من عمرها ، فى مقدورها أن تجرى الى الدب وتداعب يديه ، هكذا تعلمت من قصص الاطفال ، لابد من انقاذها .

(١) ها آرتس .. ١٩٧٠/٦/٩

هناك بأعلى تلهو جماعة من الطفلات البريئات ، صرخ الرجل : الدب .. الدب !

هل هو دب طيب ؟ كيف يمكن أن تصل الدببة الى هنا ؟ هل يسقطها العدو من الطائرات ؟ هل هو طابور خامس خرج من داخل المغارات المظلمة ؟

انظروا كم نحن أذكياء ، اننا نقف هناك على القناة وسلاحنا مجهز وآذاننا صاغية .. بينما هم يهاجموننا هنا من الخلف فى مكان لا نتوقع فيه الهجوم .

ان الحرب خدعة ، هذه هى القاعدة ، ابنتى بريئة ، فى الخامسة من عمرها ، تلهو فى سعادة مع صاحباتها بأعلى الشارع ، وهناك دب .

لابد من انقاذ ما يمكن انقاذه ، وبسرعة .

كيف يأتى دب الى أعلى الشارع ؟ من الذى أرسله الى هناك ؟ ماذا يعمل ؟ ..

بدأت عملية هروب جماعية .. أغلقت الشبابيك وراح الناس يعبئون الحقائب ويحملونها على ظهور السيارات فلقد يأتى الدب فى أى لحظة ، لا بد من الاسراع .

خلا المقهى على عجل وتفرق الناس فى كل اتجاه ، أنزلت احدى الجارات تقطن فى الطابق الثالث زجاجة من اللبن وطبقا من العظام اليابسة كيما يأكل الدب ويشبع فيعود من حيث أتى ، انه جائع ، والجوع يثير القلاقل ، يبعث الافكار السوداء ويؤجج الثورة فى الامعاء يلحق المرض والالم الابديين بالجائع ، لا بد من تقديم اللبن للدب .

الآن شاهدت الدب بأعلى الشارع ، انه يبدو عصبيا .. متعبا واثقا بنفسه ، أصيب الناس بالذعر ولم تظهر الشرطة بعد ، انقطعت خطوط التليفون ، هذا الوضع

هو ما يريده الدب ، هو دب رمادي بارد الطبع : عصبي الى حد ما ، ولكن هل هذا كل شيء ؟ من اين ظهر ؟ من البلدان الباردة ، كيف يمكنه ان يتكيف مع طقسنا ؟ انه يرتعش ، متعب ، عصبي ، أهو رب أسره ؟ جريت بسرعة لانقذ ابنتي ، كان على أن أجرى مسافة غير قصيرة ، ينبغى أن أحاذر من فقد قواى ، يجب أن أخطط ، ان عدم التنظيم هو ما يضعفنا .

وضع صاحب المقهى على المنصة بضعة أنواع من الحلوى وبعض البسكويت الرقيق والطويل وكذا زجاجتين من الويسكى الفاخر كيما يشرب الدب ، كنت أقف هناك مغيظا ، لكن المقهى ليس ملكا لى ، ان الناس يعتقدون أنهم يهزمون أكبر الاعداء فى العالم .. الجوع .. ولكن للدب غرائز أخرى .

انه حساس تجاه بنى البشر .. يكرههم ، صحيح انه ظمآن ، لكنه يريد أن يشرب دما ، ان من لايفهم معنى هذا لا يفهم ما هو الدب ، وليس هذا فحسب ، بل انه لا يفهم معنى أن يحاول رجل انقاذ طفلته ابنة الخامسة بأعلى الشارع .

— لن يضطر الى كسر بابى وتحطيم المنصة ، قال لى صاحب المقهى . سيكون الامر بسيطا تماما ، سيأخذ زجاجة أو اثنتين وبعض البسكويت ، سيلتهمهما كالدب ثم يغرق فى النعاس سيعب الهواء ثم يهدأ ، المهم الا يكون عنيفا وفى اللحظة التى يصبح فيها عنيفا فانه يحطم كل شيء ، ان المقهى يقدر بمائتى ألف دولار ، فما بالك اذا قيم بالروبل ؟ رفع الدب ذراعيه الى أعلى ليحطم سورا من المدرجات يعترض طريقه ، راته ابنتى من على بعد فراحت تصفق ، هل هذا دب قرقاس ؟

كيف وصل الى هنا ؟ من أين ظهر ؟

نبحت تجاهه بعض الكلاب فنظر اليها فى هزء ، ان كلبا ينبح لايمكن أن يضايق دبا ، تقدم الدب على منحدر الشارع ، انه يبحث عن مقهى ، كان قلقا وعيناه معشيتين من الضوء المنعكس من على شيش البلاستيك ، الى جانب صناديق الزبالة كان أصحاب البيوت قد وضعوا أطعمة وأوان بها ماء من أجل الدب .

حطم الدب كل شيء ، دب شبع أخطر من الف عالم جائع ، عل أحدا يذهب ليهدىء الدب ؟ عل احدا يذهب ليبحث له عن الدبة ؟ الا يوجد هنا حتى مروض وحوش أو ما يشبه هذا فيستطيع أن يلوح بسوط دون أن يكون مرتديا بنطلونا ؟ انه حتى لا يوجد أحد يرتدى بنطلونا ، كلهن فى فساتين خفيفة هفهافة ، جديرات بأن يرقن فى عينيه ، دب .. هو دب لكنه ذكر ذو عينين .

ما الذى يبحث عنه الدب ؟ .

اتجه الى المقهى وحمل زجاجة من الويسكى بين يديه ، كانت النساء تنظر اليه من أسفل الشارع فى رهبة واحترام ، أدار الرجال محركات السيارات وهربوا ، لم يبق أحد فى الشارع ، أين الشرطة ؟ دائما عندما تحتاج لاحد تجده هو الآخر محتاجا الى أحد ، لايمكنك أن تلتقى بأحد لا يحتاج شيئا ، انك دائما اما مساعد أحدا أو مساعد من أحد ، لا يمكن لك أن تنعزل .

والآن أيها الدب .. لابد من عمل شيء قبل أن تقع كارثة فظيعة ومرعبة .

على حين فجأة توقفت سيارة صغيرة وخرج السيد

دافير من داخلها ، استعرض الدب فى لا مبالاة دون أن يبدو عليه أنه قد تأثر لمرآه .

والسيد دافير عالم ذائع الصيت ، انه يستعد لتقديم رسالته للدكتوراه بالجامعة ، هو فى حوالى الثامنة والعشرين وله زوجة وولدان .

خرجت زوجته من السيارة وجعلت تساعد طفليها على الخروج ، استعرض السيد دافير الدب وكما قلنا فانه لم ينفعل لا بالسخط ولا بالرضا .

ان انسانا يحصل على كل ما يريد فى سن الثامنة والعشرين لايمكن أن يتأثر بسهولة ، ساعد زوجته وهى تخرج من العربة وحمل عنها السلال ، لقد عاد هو والعائلة من نزهة مجنونة على شاطىء البحر ، نظروا جميعا الى الدب وكأن الامواج قد حملته وأتت به الى هنا ، شىء عادى ، مسألة ذات وزن طبيعى ، خلع السيد دافير هوائى الراديو وألقاه داخل السيارة ، انه يفعل هذا دائما ، فالاولاد يخربون كل شىء ، يخلعون هوائيات السيارات وأغطية الكشافات ، انهم يفعلون هذا بدافع من الطيش وحده ، وهو أمر على نفس درجة السوء التى ينطوى عليها الدب .

اصعدوا الى أعلى ، سأتحدث معه ، قال السيد دافير لزوجته ، غير أن زوجته فضلت أن تراقب الدب امرأة لطيفة ، امرأة لطيفة تشعر بالخطر ، مدام دافير امرأة دقيقة الحجم .. معتدلة القامة .. شهية تنبض بالحنان ، راحت تنظر الى الدب بعينين واسعتين عسليتين ، ان الدب يحب العيون العسلية ، انه يحب النساء . ماذا ستقول له ؟ سألت مدام دافير زوجها ، أى أنها تريد أن تعرف بماذا سيجيب الدب على زوجها .

سأحاول تهدئته ، ان هـذا شارع هادىء .. وهو يخل بحركة المرور ، انه يقف وسط الطريق مزمجرا ، يحك جسده .. انظرى كيف يحك جسده ، انه مصاب بالهوس .

أسرعوا الى البيت يا أولاد ! قالت مدام دافير دون أن تتحرك من مكانها ، نظر اليها الدب في استطلاع ، خطا السيد دافير تجاه الدب وخطا الدب تجاهه ، بعد قليل ستقع الـكارثة المحققة .

ماذا سيقول للدب ؟

ـ اسمع ! عليك بالهدوء ، إن هـذا شارع هادىء متعقل ، عد من حيث جئت ، خـذ قطعـة من الخبز وزجاجة من اللبن اذا كنت جائعا . ليس لك ما تبحث عنه هنا .

ـ حقا ؟ أجاب الدب مزمجرا .. حاحيه .. حيه ، ان لديك امرأة شهية ، انني أتشهى اللهو بفخذ رجل ومداعبة ساقى صبية ، اننى واثق من أن لها ســاقين مديدتين ولطيفتين .

لم يتراجع السـيد دافير ، تراجعت زوجتـه وقد اكتسى وجهها بالزرقة وهى تتلفت حولها ، سمع بعض الاشخاص ما قاله الدب وسيشهدون فى صالحها عندما يحين الوقت لذلك ، ماذا سيفعل الدب بها ؟ انه غير انسانى .

لو احتضنها لحطم عظامها ، ولو قبلها لبعثر أسنانها ولو . . . ان دبا بهذه المقـاييس يمكنه أن يشرخها وكأنه رمح ، ان هذا غير انسانى ، أنه لشىء فظيع ، ستموت المرأة ، سيشرخ رحمها ، سيمزق أمعاءها .. رباه .. سيكون الامر غير انسانى لو فعل بها شيئا من

هذا النوع ، خاصة بهذه المرأة .. فهي مراة محترمة طاهرة وطيبة ، امرأة رائعة هادئة وذكية ، امرأة رقيقة ماذا سيفعل فيها .. وكيف ؟

جذب الدب ذراع السيد دافير وفصلها عن جسده ، القى اليد الى بعيد ثم هوى بلطمة على وجه السيد دافير انهار السيد دافير على الارض ولم يعد له وجود ، نظرت زوجته الى الدب وكأن السيد دافير لم يكن له وجود قط .

***

يارب السماوات ، ان هـذا غير انسانى ، ان لدى طفـلة فى الخامسة وسترى ماذا يفعل الدب فى امرأة طيبة ، ان هـذا غير انسانى ، انه دب متوحش ذو مقاييس هائلة ، لقد قرأت فى دائرة المعارف فى احدى المرأت عن مقاييس الدب ، ان هذا موت محقق للمرأة فلينصرها الله .

فى خطوتين بسيطتين أمسك الدب بها وجذبها الى ما بين ذراعيه وبحركة من يده مزق ما على جسدها من ملابس ، بديع ! أعنى فظيع ، امرأة بيضاء عارية كما ولدت بين ذراعى دب شيطانى غير انسانى ، انه سيفعل فيها الآن فعلا فظيعا ، سيقتلها ، انظروا ، يارب الارباب

ترك الدب المرأة .. فسقطت على أسفلت الشارع مغشيا عليها وساقاها مفروجتان على اتساعهما ، هذا كل شيء ، هل هى ميتة ؟ بدأ أن الدب يشعر بالرضا ، لقد كانت هذه امرأة عالم طيبة ، غاية فى الطيبة ، عب الدب من زجاجـة الويسكى فى جوفه وبدأ يخطو على منحدر الشارع ، لقد أقسم شخص انه سمعه يقول :

الآن أنزل الى السفينة وأعود الى سيبيريا ، ان بعض

البرد لن يضيرني بعد هذا الحمام ، من يستطيع العيش في مثل هذا الطقس الجنوني ؟ أنثى « مش بطالة » ، ميتة ، مثقوبة كالغربال .. عندما أوجه نظراتي الى امرأة يقضي عليها بالموت ، موت ناعم الى الشيطان ، من لا يريد أن يموت هكذا ؟ الله يساعدني .. لا ضرورة للاستحمام ، ليست هناك قطرة دم ، ماذا ؟ هذه المرة لم أستحم في الدماء ؟ ولكن كيف ؟

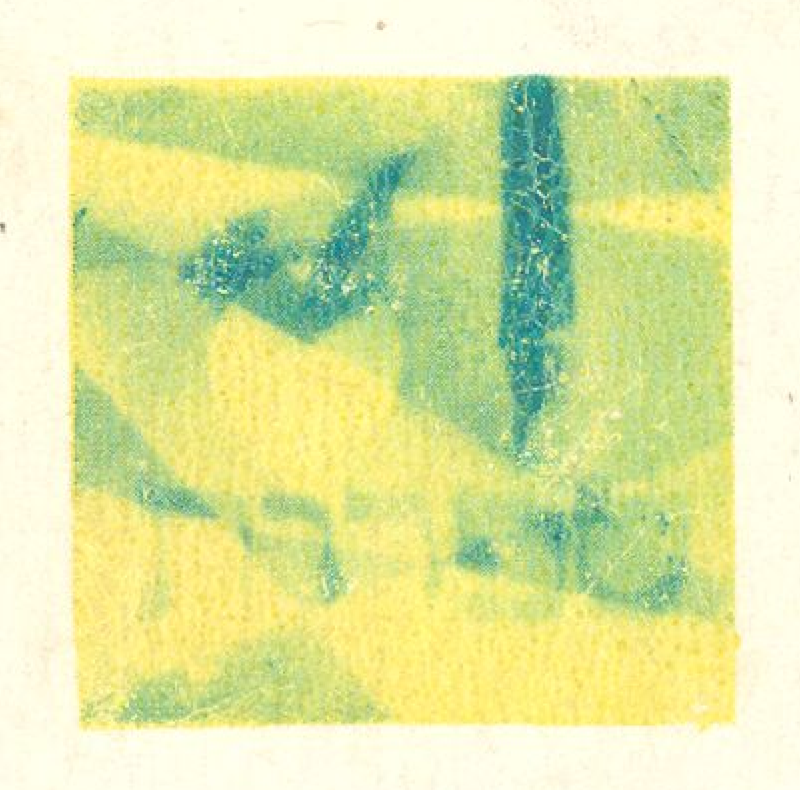
***

وهكذا لم تمت مدام دافير ، نهضت من مكانها ، كان وجهها مكتسيا بالزرقة وهي تعرج في مشيتها ، أخذت ولديها واتجهت الى مدخل البيت .

ورباه .. ان هذا غير انساني .. هذا غير انساني ، كيف هذا ؟

كانت طفلتي ابنة الخامسة واقفة ورأت كل شيء ، الآن تشوهت أفكارها عن الحياة ، لقد فقدت كل قدرة على تقدير معايير الاشياء ، ان هذا غير انساني .

فهرس



هذا الكتاب

اكتشفت الأمة العربية بعد عدوان يونيو سنة ١٩٦٧ أن العدو الصهيوني يعرف عنها كل شيء في مختلف المجالات والميادين ، وانها من الجانب الآخر لا تعرف شيئا واضحا عن هذا العدو · لقد كان العرب يظنون لفترة طويلة انهم يستطيعون هزيمة عدوهم بالتجاهل والاهمال ، وفي نفس الوقت كان العدو يدرس كل شيء عنا ، لأنه يعرف أن هزيمة العرب لن تتم الا بدراستهم ومعرفتهم وكشف نقط الضعف فيهم ونقط القوة · وقد قامت الجامعة العبرية في اسرائيل بترجمة كثير من نماذج الادب العربى القديم والمعاصر ، كما نشرت - بالعبرية - ترجمة لتاريخ الجبرتى ، واهتمت هذه الجامعة نفسها بدراسة التاريخ السياسى والاقتصادى والاجتماعى والنفسى للعرب ·

وقد تنبهنا اخيرا لهذه القضية ، واصبح العقل العربى بعد ١٩٦٧ متلهفا لمعرفة عدوه · لأن هذه المعرفة هى الطريق الى هزيمته والانتصار عليه ، ولذلك صدرت كتب عديدة عن المجتمع والانسان في اسرائيل · ولكن المكتبة العربية ماتزال خالية من النماذج والدراسات الكافية عن الأدب الاسرائيلى · وهذا الكتاب الجديد الذى تقدمه سلسلة « كتاب الهلال » هو محاولة في هذا الميدان ، فهو يتضمن دراسة للأدب الاسرائيلى المعاصر ، كما [illegible] من الشعر الاسرائيلى والقصة الاسرائيلية ومن خلال [illegible] نستطيع ان نفهم الكثير من الواقع الاسرائيلى والنفس[illegible] فالأدب دائما هو مفتاح لمعرفة الشعوب وهو تسجيل [illegible] حقيقى لما فيها من جوانب القوة والضعف · اما م[illegible] احد الأساتذة والباحثين الشبان المتخصصين في [illegible] الشرقية بجامعة عين شمس ·


Bibliotheca Alexandrina
0355951

